مكتبة
t.me/soramnqraa

إميلي نصرالله

الطاحُونَةُ الضَّائِعَة

نوفل

الطاحُونَةُ الضَّائِعَة

إمِلي نصرالله

الطاحُونَة الضَّائِعَة

مجموعَة قصَص

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة الرابعة
صدرت عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

طباعة: **مطابع روحانا الشمالي**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-925-2

جَبل السندرُوس

يا أمِّي،

وعدُتكِ بأن أعود، وها أنا أفي بوعدي.

جئتُ لأمسح ينبوع الدمع، لأُحوِّل آهاتِك إلى زغردات وأُفجِّر في عينيك ذلك الشعاع القديم، والذي خبَا نورُه منذ هجرتك.

أَحمـــل إليكِ فوق راحتيَّ المحبـــة والوفاء، وأحمل طموحي في جفني وأَصبُّه بين يديك... وأنقل معي كدســـة الرســـائل التي تجمَّعت طـوال سِـنِي الغربـة والفراق.

عشـــرون عامًا، عشـــتها بعيـــدًا عن حضنك، عن نشق عطر أنفاسـك، وتمريغ جبيني في كفَّيك.

يا أمي،

هل تغفرين؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

النشـيد يدور في رأسي ويدور. لم يفارقْـني منذ أَن اتَّخـذتُ قـراري: سأعود... بأيّ ثمن سأعود، حتّى ولو تخلَّيت عن كلّ ما بنيتُه من مجد، وما رفعتُه في هذا البلد الغريب من عمارات علميّة.

هكذا نبتتِ الفكرة كما ينبت الفطـر من فَقْسِ الرعد، وكنت سـاعتئذ أَتجوَّل مع فريـق من الخبراء بين جبـال البلد الغريب، باحثين عن المعادن، وفجأَةً سـمعت صوتًا يهمس في أُذني: هذا ليس جبلكَ، هذه ليسـت أرضكَ، عبثًا تعمل لتجذّر هنا، وسوف تظلّ نقطةُ النار تلتهب في أحشائك ولن يُبَـرِّد لظاها سوى قطرات الماء المتدفّقة من «نبع الصخر» بجوار قريتك.

وَسـمِعتُني في غفلة منّي أُردِّد: «ليس جبلي، ليسـت أرضي، غريب في أرض الغرباء، هذا أَنا».

ويهتف صوت معارض: «ولكن كلُّنا فوق هذه الأرض غرباء.»

ويجيبه الصوت الهامس في داخلي: «غربة عن غربة تفرق.»

وتقفز العبارة من صميم أعماقي: «غربة عن غربة تفرق.»

***

قيل لنا إنّ الجبال غنيّة بحجارة معدنيّة لم يُعرف اسمها بعد، وعلينا أن نكتشفها. جهَّزتني الجامعة بالمال لأجل تحقيق المشروع، كما زوّدتني بفريق من الخبرَاء والمسـاعدين، وطلبتْ مني أَن أَتسـلَّم إدارة الحملة وأكون رأسها المدبِّر.

لا أعترض على ذلك، وشعوري هو العكس تمامًا. فأنا فخور بهـذا... وحين أنهيت دراسـتي، وحزمت حقائبـي للعودة، بذل مديري أَقصى الجهد لأبقى وأَعمل معه، وقدّم لي عروضًا مغريّة. وكان يلوح لي من الطرف الآخر، ذلك الفراغ الرهيب في بلادي.

لا مجال أمامي لأَعمل في أرض وطني، في أرضنا الغنيّة، الحريصة علـى غناها حرص عجـوز على نقودهـا المدَّخَرة لأيّامها السود.

وبرغم ذلك حاولت.

لا أنكر أنّي حاولت.

بعثتُ أطلب العمل في الجامعات، في المؤسّسات... وكانت رسائلي تعود إليّ مع جواب مختصر: «آسفون».

ثـمّ جاءت «كاترين»، وقضَت على آخـر الدوافع التي كانت تحثُّني على العودة؛ غرقتُ فـي حبّها، وفي عملي، ورحتُ أوزّع وقتي بين هذين العالمين، وأَقفز فوق سـلالم الطموح والنجاح، وأُحقـق مـع كلِّ فجرٍ اكتشـافًا جديـدًا يغرس حولي الدهشـة والإعجاب.

وأَثمر حبّنا زواجًا سعيدًا، وطفلين طيِّبَيـن.

«بأيّ ثمن، إحتَفِظوا بسامر النجّار.»

كانت هذه توصية مدير الجامعة...

وكان «الثمن» غاليًا جدًّا...

عشرون سنة انقضت، أَحيانًا كانت تمتدّ طويلةً، بعمر الأبد، وقد أصبح ابننا «هاني» في عامه السابع عشر، وقرّة عيني «جنان» في عامها الخامس عشر.

تعرفينهم من صورهم، وهم يحملونك في عيونهم وقلوبهم، يا أمّي.

ذِكْرُكِ يمتزج بذرّات الحياة، باللحظات، بالماء والغذاء والهواء. أَنت عندنا حاضرة في كلّ شيء... واليوم ها أنا أحملهم إلى حضنك. نحن عائدون إليك كلّنا... ولنبقى.

***

قالت أمّي في رسالتها الأخيرة: «فكّر في الأمر مليًّا، يا سامر. ليس سهلًا على عالِمٍ مثلك أن يجد له عملًا هنا. الفُرص محدودة وأَنتَ اليوم مستَقِرّ، ثمّ لا تَنْسَ زوجتك. هل تستطيع أن تعيش في قريتنا النائية، بعيدَة عن المدن وما تُقَدِّمه من ترفٍ وراحة؟ وهاني وجنان؟ انهما يجهلان حتّى لغتنا. فكّر في الأمر مليًّا، يا حبيبي.»

وأجيبُكِ، يا أمّي: لقد فكّرت...

طوال سنوات اغترابي كانت فكرة واحدة تطرق جدران الوعي واللاوعي:

أَعود أَو لا أعود؟

وأُجـري المعادلة، وأبحث عـن الحلّ الأَفضـل وما يلائم شخصي ويرضي أنانيّتي، وآمالي ومطامحي...

والآن، لـم أَتخَـلَّ تمامًا عن هذا التفكيـر، ولكنّ الأمر بات مختلفًا. صرتُ أكثر خبرة وأَشدَّ وعيًا وأبعد عمقًا.

تعرفيـن أَنّنا، كلّما حملتنا السـنواتُ صَـوْبَ الأيّام المقبلة، أَعادتْنـا بنسبة المسافة ذاتها إلى الوراء، لنغرق في أَعماق عالمنا الداخلي، حتّـى إِذا ما بلغنا مرحلة الشـيخوخة النهائيّة نكون قد حقَّقنا اللقاء المدهش مع بدء الطفولة.

ويبقى العمل.

وهنا أَذكر حكمتَكِ البسيطة يا أمّي: «العمل خُلِقَ لِـيُسَخَّر من أجل راحة الإنسان وتَحرُّره، وأنا أرفض أن يُصبح الإنسان مستعبدًا لأيّ عمل»...

***

حين كنتُ صغيرًا، كان طموحي ينمو ويتطاول حتّى يلامس أطراف السحب. وكانت نظراتي مشدودة أَبدًا إلى فوق، إلى الأُفق البعيد. حيث ينتظرني المستقبل الباهر، وفي ذلك الاتّجاه سافرت، تاركًا خلفي أَروع أَيّام الطفولة وأَغلى الذكريات، منسـلخًا عن الأرض، عن حضنك، ممتطيًا جناح الطموح.

سافرتُ خلف العلم، تلك الكلمة السحريّة الجذّابة التي دوّختني.

منذ عشرين سنَة وأَنا أَعيش في دوارها ونسيت... نسيتُ أَنّي ذات يوم، وبينما كنت ألعب مع أبناء الجيران ورفاق الطفولة بين الكروم، عند سفح الجبل المواجه لقريتنا، عثرنا على حجارة غريبة، برتقاليّة اللون، تلمع كالبلّور. رحنا نجمعها حتّى ملأنا منها راحات أيدينا وجيوب ستراتنا، وحملناها إلى القرية...

ويومها ضحكتم علينا... انتِ وأبي والجيران والأقارب، وأَخذتم الحجارة وقذفتم بها إلى النار، فإذا بها تحترق.

وذُهلنا: حجارة وتشتعل؟!

وردّت جارتنا أم سليمان:

- طبعًا، هذا حجر «سندروس». كلّ عمرها أَولاد البلدة تجمع هذه الحجارة.

وتعرّفت على هذه الحجارة في أَثناء دراستي علم المعادن. «سندروس» ليس الاسم العلميّ، بل هو الاسم المحلّي، المتّفق عليه في القرية، وهو أحد أصناف العنبر الثمين. وتذكّرت «جبل السندروس» وجولاتنا عند سفوحه، وكيف؟.. كيف لم يخطر ببالي أنّ بلادي غنيّة بهذه الحجارة الثمينة؟.. كيف لا أَعود لأبحث عنها، وأستخرجها من جوف التربة، وأُنعش بها قريتي؟..

نعـــم، يا أَمّي، الإنســـان لا يتعطّل، وخصوصًـــا إذا كان زاده العلـــم والمعرفة والحبّ والإيمان. وها أنا عائد إليك، فأَحضري لي قهوتي المفضّلة، المطيّـــبة بحَبّ الهال، وسوف نجلس على المصطبة، مثـــل أيّام زمان، ونرشـــف القهوة، ونتمتّـــع بالطبيعة الهادئة.

ألا تزال طبيعتنا هادئة؟

وعندما تُشرق الشمس، أجمع أبناء الجيران: نزيه وسعد وفؤاد وغيرهـــم... ونصعد إلى «جبل الســـندروس» لنجمع من ســـفحه الحجارة الغالية.

أَخبريني ألا تزال القرية تحضـــن هؤلاء الرفاق، أم أنّ الرياح بعثرتهم في كلّ اتّجاه؟..

لا... لا تجيبي عن هذا السؤال.

دعي الجواب إلى حين وصولي.

***

ويا أمّي!

لقد علَّـمْـتِـني أنّ النظر إلى الأعالي لا يجوز أَن يُـعْمـينا عن رؤيـــة الواقع، ومحاولات التحليق فـــي الفضاء لا يجوز أن تزرع الشـــقاق بين القدم وموطئها... وأنا عائـــد لأعمّق موطئ قدمي، لأغرس سنديانة على باب بيتنا العتيق.

أَعود وصدري طافح إِيمانًا بأَنّ الكون بأسـره يمكن أَن يكون وطن الإنسان، ولكنّ الواحد منّا يحتاج إلى رقعة صغيرة جدًّا منه، ليمدّ فيها جذوره، وهذه الرقعة هي ما أَبحث عنه منذ سنين...

لقد سافرت ونسيت جذوري هنا.

سافرت وخلَّفت، بين أزقّة القرية ومساكنها وأَحراجها وجبالها، طفلًا عجيبًا وعنيدًا، ظلَّت أصابعه متشبّثة بأطراف ثوبي تشدّني... وكلّما خطوت خطوة إلى الأمام، تعود فتجرُّني إلى الوراء، ولأَنّي أحبّ ذلك الطفل، لم أستطع أن أَطرده من وجودي أو أَتخلّص منه نهائيًّا. فضلُه علي فضل الحياة نفسها. وبدأت أشعر بأن تَمَاديَ في الغربة سوف يبقيه مشرَّدًا، وحيدًا، وأَنا لا أطيق الطفولة المشرَّدة، الموحشة. فكيف إذا كانت تخصُّني؟ كيف إذا كانت طفولتي أنا؟...

لقد استخدم الماكر أسلوب الغنج في آخر لقاء بيننا... كنت منحنيًا فوق فتحة المنجم، أَتفحَّص بعض معادن جديدة اكتشفناها، حين شعرت بظلِّه فوق رأسي، وأَحسستُ به يمدُّ أصابعه إلى جيبي، فيُخرج منه بعض الحجارة، ويعرضها بيديه الصغيرتين أمام عينيّ وهو يردِّد بلسان لم يستقم:

- ثندروث... ثندروث...

ولمّا نهضت والتفتّ إلى مصدر الصَّوت، سمعت قهقهةً تتردَّد بين الأودية العميقة والبعيدة، ثمّ تعود أصداؤُها إليَّ صافية، جلية:

يقصد أَن يقول لك: «سندروس» أتذكر؟

ولاحقتُ الأَصداء بكلّ حواسي، وأَبصرت الطفل يركض، ثمّ يحلِّق مثل نورس البحر، ويلفّ فوق الأودية والجبال ويده تشـير إلى الشرق، وتدعوني إلى اللحاق به، واقتفاء أثره...

تدعوني إلى جبلٍ بالذات، تتكوّم عند سفوحه تلال من حجارة السندروس...

الحِصَار

تمطر،

منذ أُسبوع، وخيوط المطر تصل الأرض بالفضاء الرماديّ، ثمّ تنســاب فوق أشجار الزيتون والسنديان، تغسلها، وتنحدر قطراتٍ فضية تغور في الأرض.

تُمطر في الخارج مثلما تمطر في قلبها، وعينيها.

منذ أُســبوع، وهي تدور في غرفتها، وتنتهي إلى مقعد لاصق بالنافــذة الزجاجيّة الوحيدة في البيت. ترنــو عيناها، عبر الزجاج المغبّش، إلى أَبعد نقطة، عند الأَفق الشرقيّ، حيث يرسم «حرمون» خطًّا متعرّجًا فوق صدر السماء.

أَلآن حرمون مُتوارٍ. تجثم فوق صدره سُــحُبٌ دكناء. سحب كثيفة تطوِّقه مثل سواعد المردة. وفي صدرها سُحب مماثلة.

تُراه يبصر الشــمس هو، الســاكن في عليائــه، ويتلذّذ بلونها ودفئها ونورها بنرجسية متمادية، ويتركها، هي الفتاة التي عشقته، يتركها تنوء بحمل الغمام القاتم، وتَتُوهُ في وادي الضياع؟..

***

في زمان مضى، كانت تحبّ المطر. وهي، لو فحصت ضميرها، الآن، بإخلاص، لاكتشفت أنّها لا تزال تحبّ المطر، ويرتعش في صدرها طائر مرح، يزقزق كلّما نقرت حبّاتُ المطر زجاج نافذتها.

أمّا هذه «العِيَانَة» فتكاد تكون بلا نهاية...

بدأت العيانة لا تذكر متى، ولا تزال مستمرَّة، وشعاع الشمس محتجب خلف تكاثف الضباب... وهي تتوق إلى خيط نور ضئيل يتسرَّب هادئًا، بطيئًا، دافئًا... يتسرَّب إلى حجرتها، ينير زواياها المُعْتِمة ويطردُ منها الرطوبةَ، كما يطرد القلقَ المتخبّط بين ضلوعها، ثمّ يمسكها بيدها ويدعوها إلى أن تخرج وتعيش مع الطبيعة الحرّة، وتنسى شرنقة عزلتها.

***

هذا كلامٌ وأحلامٌ وتأمّلات...

لماذا تحلم بالشمس كلّما تكاثف الضباب في عينيها؟

والشمس في بلدها تظلُّ مشرقة، معظمَ أيّام السنة؛ وتبقى مشعَّةً إلى حدٍّ يُذبل بشرتها، ويجفِّف روحها. ثم لا يكاد القرص الناريّ يتوارى خلف غزوةٍ ضبابية، حتّى تشتاقه وتجلس تحلم به وتتساءل: «أين توارى الدفء وخلّفني للأيام الباردة؟».

وهي ليست وحيدة في هذا العالم الصغير المحيط بها.

ربّمـــا كانت وحدها في غرفتهـــا؛ إلّا أن الكون من حولها لا يزال يدور... يدور على نفسه، وفوق رموش العيون القلقة، وهي تسمع جلبته، عابرة إليها من كلّ الأبعاد.

***

أبوها وصل الآن من مشـــوار الصباح. ســـمعته يفتح الباب. ينفخ علـــى يديه. يتأفّف من العاصفة والمطر. ســـمعتْ نداءه لإخوتها، والإخوة لبّوا النداء وخرجوا يساعدونه.

لم يُـنَـــادِها. أبوها يعفيهـــا من بعض الأشـــغال المتعبة... ولكن، لماذا؟

تحفظ المَـهَـمَّـة التي قام بها منذ الصباح الباكر:

ساق الحمار إلى حمى السنديان والملّول المجاور للقرية. كان يحمل فوق كتفه «فـرَّاعة» ورزمة حبال. مضى تحت وابل المطر. كان يمشي صامتًا، قاصدًا الحمى، ليقطع «الفَـرْع» أغصان الشجر الخضراء، يطعمها لحيوانات مزرعته: «علينا أن ننقذ «الطرشـــات» من مجاعة هذا الشتاء».

هذا ما قاله لأمّها، وهو يودِّعها عند عتبة الدار.

و«الفرع» اســـم لطيـــف، طـــريء، ويحمل الرحمـــة لبطون الحيوانات الصابرة. هَـا أغصان الشجر ترتمي في ركن من الدار،

تنتظر مصيرها. ومصيرها رهن الأَفواه الشرهة المزروبة في القبو، منذ أسبوع.

الحمار لم ينقل فروع الشـــجر وحســـب، بل حمل «قرامي» السنديان والزيتون. ثـمَّة مجاعة أُخرى تصرخ من اعماق الموقد.

***

قال أبوها، وهو يخلع معطفه المبلّل:

- طالت العيانة، وربما امتدت إلى شـــهر. علينا أَن نفكر في الأيام المقبلة.

فتمتمت أَمها بصمت:

- الله يعين، يا «رجَّال»، الله يعين. الحمى قريب، والأشـــجار فوق بعضها.

قال أبوها:

- تذكُّري، يا «مَـــرَهْ»، لســـنا وحدنا في «جورة السنديان». لو خرجنا يوميًّا إلى الحمى، مثلما فعلنا اليوم، لحلقنا الشجر حلاقة. والشجر لا ينبع كالماء.

لم تسمع جواب أُمّها. تصوَّرت كيف تزمّ شفتيها، وتصمت، ثمّ لا تلبث أن تنهمك في أمور أخرى.

ثمّ سمعتها تقول من جديد:

- لم نتموَّن ما يكفينا من «الجفت»... قرامي السنديان خضراء، تحتاج إلى نفخٍ كثير.

ثمّ سمعتها تنفخ، من صميم أعماقها. تنفخ النار. تشعلها من حرارة أنفاسها.

أَبوها لم ينفعل. لم يردّ بنزق، مثلما يفعل أَمام أيّ انتقاد عارض. لم يقل لها: «تفضّلي حضرتك، إذهبي إلى الحمى، واحضري القرامي اليابسة»... لكنّ المشكلة أعمق ممَّا يبدو. هناك تباين في وجهات النظر، واختلاف في مهمّات التموين، بين أمّها وأبيها:

أَلأُمّ تعيش في دوَّامة القلق طَوال أشهر الصيف، تخزن، تموِّن، تملأ «الكَوابِر» و«الخوابي» و«النعاير» و«الألفيات» و«المقشّشات» والجرار... تقضي الصيف كلّه وهي تحور وتدور على نفسها، وحول المنزل والبساتين والكروم مثل أَيّة نحلة مجتهدة. وتترك للزوج مهمّات تخزين الحطب، والعلف، وجمع «التبن» و«العور» و«الشنديب»، لتأمين الدفء لأهل الدار ودفع ضائرة الجوع عن سكّان القبو.

كلّ ما هو خارج المنزل، هو من مهمّات الرجل. أمّا المرأة فتبدأ عملها من العتبة إلى الداخل.

***

وهذا العام، كان كلُّ شيء مختلفًا عن الماضي:

ألأَب لم يجرؤ على أن يبتعد عن الحدود المباشـــرة «لجورة الســـنديان» ويتغلغل في الغابـــات البعيدة، حيث تقوم «شـــلوح» «البُطم» و«الملّول»، وحيث تنمو أشجار السنديان الضخمة بانتظار السواعد القويّة...

والأمّ تعلم أنّ دَوْسَ تلـــك الأراضي بات محرَّمًا عليه وعلى ســـواه من القرويّين، منذ ارتفعت، فوق التـــلال الجنوبية، «عيون الرصد والمراقبة» وصـــارت المغامرة إلى أبعد من الحمى تكلِّف صاحبها حياته.

وهكذا تقلّص عالم الأُســـرة وســـائر العوالم القرويّة. وحاول الناس أَن ينسَوا أَنّ لهم في المدى المتواري عن حدود القرية كرومًا وبساتين، واكتفوا بالحمى القريب يغزونه كلّما تأَزَّم الوضع، واشتدَّت الضائقة على الأعناق، وهدَّدت الأحياءَ في أغلى ما يملكون.

تعرف أُمُّها ذلك كلَّه، ولا تلوم زوجها، وقد بات يحمل إليهم الأخشـــاب الخضراء، وقرامي السنديان التي ترشح ماء وتتخاصم مع الموقد كلّما فتح ذراعيه مُرحِّبًا بها.

***

ســـلمى تحفظ هذا كلَّه في قلبها، لذلك لـــم تتحرَّك من مقعدها. وظلَّت عيناهـــا تعبران الزجاج المغبَّش، تنتظران رحيل الغيوم، أَو انفصال غيمةٍ عن غيمة، مخلّفتين انفراجة مضيئَة.

تراقب مكانًا معيّـنًا.

تشعر بغريزتها، ومن مجال الخبرة، بأنّه المكان المرشّح لمثل هــذا التحوّل؛ فقد بدأت الغيمات تنفــض خصلاتها الرماديّة، ثم تذرّيها، وتتهافت الخصلات؛ فمنها ما ينحدر، ومنها ما يرتفع إلى العلاء. والغيمات بمجموعها، تتحرّك وسط مهرجان طقسيّ رائع، جعل سلمى تلتصق بمقعدها، وتنسى الضوضاء خارج الغرفة.

الغمامة العليا رحلت، ارتقت متن الرياح وتلاشــت، وبقيت خلفها طبقات كثيفة من الندف الرمادي.

لا. رحيــل غمامة واحدة لا يأتي بالانفــراج، ولا يجعل ثغرَ السماء يفتَـرّ عن بسمة واعدة.

سوف يظلّ هذا الوجه متجهّمًا، ولكن إلى متى؟

ليس هناك أَيُّ دليل يرشدها، وتستعين به لتفهم تحرُّك الغيوم والرياح في الساعات المتبقّية من نهارها.

وفــي داخل المنــزل، يعلو الصخب مختلطًــا بدخان حطب أخضر، يعسّ ولا يشــتعل، ولا تندلع منه ألسنة حمراء تنثر اللون والنور في كلّ اتّجاه.

***

تذكَّرت سلمى: من سنوات مضت، أنّ الاخشاب كانت تحترق بلا عناء، حتّى لو قُطعت للتوّ، عن أُمّهات مخصبات...

ذلك، أيّام الماضي، حين كان والدها يستطيع أن يبلغ أَحراج الصنوبر والشربين... حين كان هو، وسواه من رجال القرية، يخرجون إلى أبعد من حدود «الجورة».

وفي الحمى القريب، لا تنمو أشجار الصنوبر، فهي تتسلَّق المرتفعات، وتمتدّ وتنتشر فوق الذرى. أَمّا الشربين فغاباته خلف التلال المرئية. ولم يجرؤ على دوس تلك الغابات أيّ مخلوق، منذ أن ارتفعت، فوق التلال والذرى، عيون «الرصد والمراقبة»...

***

تساءَلت سلمى: لماذا تحصر فكرها في الأَخشاب المقطوعة، وهي قادرة على أن تمتِّع بصرها بمشاهدة الامتداد الأَخضر شرقي القرية، والامتداد الآخر جنوبها؟ لماذا تفكّر في الذي سقط من الجذوع، وهي تتأمّل الواقفين بتحدٍّ وكبرياء؟..

ولماذا تحلم بشعاع من نور الشمس، وتريده الآن، وهي تعلم أَنّ الغمام، مهما تكاثف وتآلف ودبّر المؤامرات، لن يستطيع أَن يغرق الشمس في بحره الرماديّ؟..

لماذا تظلّ تطرح السؤَال تلو السؤال، وهي تعرف الأجوبة المؤجّلة؟

وفكّرت في أنّها محاولات منها للهرب، والتغلغل في أعماق الشرنقة الذاتية، والارتماء في خدر الحلم... وهذا كلّه لن يوصلها

إلى هدف، ولن يخطف خصلة من شعاع الشمس، ما دامت أَبوابها موصدة، وما دامت الأَصوات تأتيها عبر شقوق النوافذ المغلقة.

***

لكنّ الدخان لا تردّه نوافذ الخشب النخرة، ولا تردعه أبواب.

بدأَ يتسرّب إلى أنفها وعينيها، أثار دموعها، فسالت قسرًا عنها، وراحت تغسل خدّيها، وترشح من أسفل ذقنها.

لم ترفع يدها لتمسح الدمعات. تركتها تغسل الوجه، تُـنَـدِّي البشرة، تسقيها، وتغلّ في عمق المسام، دافئة، عذبة الملوحة.

حاولت أن تعتزل الجماعة، فكان ذلك مستحيلًا. حتّى دخان الموقد، خرج من دائرته وتآمر ضدّها.

وها هو يتسـرَّب عبر الثقوب الضيّقة، والشـقوق الوقحة بين دفّتَي باب موصد، ليعبر إليها ويتطاول على عينيها، وهي لا تجرؤ على فتح النافذة، كي لا تلسعها سياط الجليد من الخارج.

صحيح أَنّ الثلج لم يسـقط بعد، لكنّ المظاهر كلّها تعد به: الغيـوم الكثيفة، المتلاحمة... لون الفضاء القاتم، وتجمّد قطرات المطر، على فروع الشجر وأوراقه الخضراء.

وماذا بعد الثلج؟

جدّتها تقول: «يأتي الفَـرَج... ثلجت فرجت»...

وإذا كان هذا منتظرًا، فلماذا تزعج هي فكرها بالتوقّع والقلق؟

أَحسّـــت أَنّ القلـــق والتســـاؤل المتعب باقيـــان مهمازَين في خاصرتيها، ما دامت منعزلة داخل حدود حجرتها الضيّقة.

ماذا لو خرجت إلى الجماعة؟

تحـــاول، تجرّ قدميهـــا وتفتح الباب. تفكّر في أنّها ستخســـر حرّيتها، وحدتها... ولكنّ أُمورًا أخرى تنتظرها.

وما كادت دفّتا الباب تنفرجـــان، حتّى صدمت أُذنيها أَصوات العائلة، وعبق في أَنفها دخان كثيف، واقتحمت جلدها لفحات دافئة.

النار اشتعلت في الموقد بعد طول عذاب، اشتعلتْ... نَفْـــخُ أمّها لم يذهب ســـدى، وتعرُّض أبيها للصقيع والمطر أعطى خير الثمار؛ والعائلة كلّها تتحلّق حول الموقد، وكلُّ فرد يختلس لنفسه حفنة دفء بأُسلوب ذاتيّ يختلف عن أسلوب الآخرين.

وهي؟

كيف تشعر أمام نار لم تَسْعَ هي لإِشعالها؟

تعود إلى التأمّل. فلا تكتفي بتأمل الأَلوان القزحيَّـــة، تتلوّى فوق حطب السنديان، بل تحاول أن تعبر، خلال اللهب إلى دفء آخر، يلفّ القلب لفًّا مُحْـكَمًا، ولا يترك ثغرة يستغلّها الصقيع.

***

جلست فوق جلد الخروف، في الزاوية، إلى يمين الموقد، جلست ساجدةً وكأَنّها في معبد، وكأَنّـما النار إلـهٌ يُعبد.

أتُــراه البرد، يدفع كلّ فــرد من أفراد الجماعــة، فيتَّخذ هذا الشــكل التعبّديّ، أم أنّها ترسّــبات اللاوعي، مــن عهود الوثنية وعبادة النار والحجر؟

***

حسبتْ أنّها خلّفت التســاؤلات والأَفكار في جوار النافذة، تنتظر عودتها، ولم تقدّر أنّها ســتتبعها، وتطنّ فــي أذنيها، حيثما نقلت خطاها. وتظلّ هي عاجزة عن طردها، والتخلّص منها.

عــادت تحدّق إلى ألســنة اللهــب، إلى ألوانهــا المتأجّجة، الحائرة بين لون البرتقال وحمرة الشفق وزرقة الأوقيانوسات، ولم يلبث وعيها أن غــاص إلى أعمق من المرئيات، واجتاز «القرمية» المشتعلة، حتّى وصل إلى أَعماق الجذور، ثمّ راح يمتدّ معها تحت التراب والصخور، في باطن الأرض الرطبة، السرّية، الحانية...

ومثلما كانت خشبة الســندیان تحترق لتدفئ سواها، أَحسّت سلمى أَنّ اللهب يسري في عروقها ثمّ يمتدّ إلى أقاصي الجذور، خصوصًا جذورهــا المتطرّفة، الموصولة بجذور المخلوقات التي تحتويهــا الأرض في باطنها الســرّي مثلما تحتوي جذورَ شــجرِ «الحمى».

أبوها لم يوجِّه إليها كلمة.

كان يتمتّع بالدفء، يجترّ أفكاره، ويدخّن غليونه بهدوء.

أمّها لم تبالِ بانتقالها.

أُمّها لا تضيّع وقتها في أَمور عابرة، ولا سيّما أنّ عملًا ينتظرها في كلّ لحظة، وفي كلّ زاوية من زوايا البيت.

وإخوتها الأصغر منها منهمكون في لعبهم وقتالهم...

وهي...

هي وحدها، ساهمة، تبحث عن كيان متحرّك، تمتطيه وترحل.

إلى أين؟

لم تسأل.

لا تريد أن تعلم.

لكنّها ستظل تنتظر كيانًا متحرّكًا، تمتطيه وترتفع به إلى فوق... حيث تتجاوز الغمام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مِن أعماقِ اللُّجَة

«قُتِل شابّان لبنانيّان في مياه تكاد تتجمّد خارج بلدة «تلريلبورغ» الساحلية، في جنوب أسوج، ليل أوّل من أمس، بعدما رفضت سلطات الهجرة السماح لهما بالبقاء في البلاد...»

(الصحُف، 18 نيسان 1981)

كانت سفينة صيد تتجوَّل قرب الساحل الجنوبي من «أَسوج» حين عثر أَحـــد الصيّادين على صندوق صغير، مربّـع الشكل، مصنوع من معدن «الألومينيوم» الخفيف.

أَثـار منظر الصندوق فضول «هانز»، وهو أَصغر الصيّادين على ظهر الباخرة، فمدَّ إليه شبكة يدويّة، وتلقَّفه، ثمّ راح يقلِّبه بين يديه، فلاحظ خفَّة وزنه وظنَّه فارغًا. لكنّ نظرة سريعة إلى زواياه المحكمة الالتحام جعلته يشكّ، من جديد، في أنّ الصندوق ليس فارغًا.

***

نادى «هانز» زميله «يورغن» وهو أَعتق صيَّاد في المنطقة، فاقترب منه «يورغن» العجوز مستفهمًا:

- ما الخبر؟

لم يردّ عليه «هانز»، بل وضع الصندوق بين يديه:

- أُنظر...

تراجع «يورغن» خطوتين إلى الوراء وهو يتمتم مذعورًا:

- ما هذه اللعبة؟ أَين عثرت على هذا الصيد؟

قهقه هانز مجيبًا:

- كان طافيًا على وجه الماء... هل أَخَـفْـتُـك؟

صرخ زميله بانفعال:

- لنفرض أنّ فيه مادّة متفجّرة، ماذا يحلُّ بنا؟ هاه!..

إبتسم «هانز» بسخرية:

- لا أَظــنّ أَنّ صندوقًا بهذا الوزن يمكــن أَن يحتوي على موادّ متفجرة.

وفجَّر «يورغن» غضبه:

- هَذْر مراهقين!.. أَلا تعلم أنّهم يُخفون المتفجِّرات في آلات أَصغر من ظفرك؟ ما هذا الاستهتار؟

لم يقنع كلامه «هانز». وقف، حاملًا الصندوق، مردِّدًا:

- سآخذ على عاتقي مسؤوليّة فتح الصندوق.

- ونطير جميعنا...

قذف «يورغن» العبارة الأخيرة، وهـو يهرول بعيدًا عن نقطة الخطر، وظلّت قهقهات «هانز» السـاخرة تتبعه حتّى غاب خلف أحد جدران السفينة.

***

لـم يكن هانز عابثًا، كما أنّه لم يفـوِّت دقيقة من الوقت: قام إلى آلة يسـتخدمها في فتح المعلّبات، تناولها، وراح يعالج الصندوق بأنامل مرتعشـة. ثمّ بدأ خوفه يتلاشى حين لمح، من خلال الشقّ المستطيل الذي فتحه، طرف ورقة.

العلبة تحوي ورقة مطويَّة على أربع صفحات، ومكتوبة بخطٍّ غريب عن لغة بلاده، أو اللغات التي تعوّدت عيناه ملاحظتها.

فتح الورقة، وتعثَّرت إصبعه بدائرة ذهبية صغيرة ملصقة في الزاوية.

أتراها تكون اللغم؟

مرّت الخاطرة في باله كلمح البصر، ثم تلاشـتْ حين أَبصر على صفحة الدائرة رسمًا «لبرج السرطان». قال في نفسه:

- صاحب الرسالة من مواليد برج السرطان.

وتساءَل عن العلاقة بين ذلك، ووجود الرسالة في البحر! هل هناك أيّة علاقة؟ من يستطيع الإجابة عن السؤال؟

ثمّ نسـي تساؤُلاته، وهو يتجِّه صوب رفيقه «يورغن» ويصرخ بأعلى صوته:

- وجدتُها!

أَطلَّ «يورغن» برأسه من قمريّة غرفته:

- وجدت ماذا، أَيها المخبول؟

- أُنظر... رسالة، وفوقها شارة «برج السرطان». بقي أَن نجد من يحلّ اللغز.

- حقًّا، إنّه لصيد ثمين!..

قالها «يورغن» بسخرية، وهو يقلب الورقة بين يديه، ثمّ تابع:

- وماذا تقول الرسالة؟ هل بَعَثَتها إِليك جنّيات البحر؟..

وأضاف بعد تأمّل:

- تحتاج إلى ترجمان صينيّ ليقرأها لك.

أجابه «هانز» بجدّ:

- لا أَعتقد أَنّ الخطّ صينيّ. الصينيّون يكتبون لغتهم عموديًّا، وهذه اللغة مكتوبة من اليمين إلى اليســـار... قل لي، يا «يورغن»، أيّة لغة تكتب من اليمين إلى اليسار؟

فقلب «يورغن» شفتيه:

- قضيت عمري أقرأ لغة السمك والحيتان. ولم يبقَ لي وقت للتعرّف إلى اللغات العمودية أو الأفقية. حين نصل إلى الشاطئ، إبحث عن ترجمان ليفكّ لك لغز الرسالة... ومن يدري؟ قد تكون مفتاحًا لكنز كبير...

***

صمت «هانز». ولم يعلِّق على سخرية رفيقة. جرجر قدميه، وعاد إلى نقطة مراقبته وهو يفكّر:

- لا بدّ من أنّ الرسالة تنطوي على لغز. غدًا أعرضها على «ولهمينا» صديقتنا الصحافية. غدًا ولهمينا تساعدني على حلّ اللغز.

وحين حاول العودة إلى عمله، ظلَّ فكره يحوم حول الرسالة، وكلماتها الغامضة، وعلامة «البرج». وتصوَّر أنّ صاحب الرسالة قد يتجسَّد فجأة، ويُطِلُّ عليه من بين الأمواج، يُعرِّفه بنفسه، يقول له: «بعثت إليك برسالة، هل وصلتْ؟» ويهزّ هو رأسه، غير فاهم، إذ إنّ الرجل، يتحدَّث باللغة المكتوبة من اليمين إلى اليسار... ثم يبصر الوجه الغريب يرتعش، وتفترّ الشفتان عن ابتسامة، وهما تتمتمان:

- حقًّا، إنّي غبيّ. نسيت أنّك تجهل لغتنا. الرسالة وقعتْ بين يديك خَطَأ. لا، لِنَقُلْ مصادفة، وعليك أن تحوِّلها إلى أصحابها.

ثمّ اختفى الوجه قبل أن يردّ عليه الصيَّاد بإخلاص:

- أعدك بأن أَوصل الرسالة... أَعدك، أيّها الصديق الذي لم أعرفه.

***

ثمّ علقت سمكة كبيرة بطرف الصنارة، ونسي «هانز» الرسالة، وهو يحاول أن يلفّ الخيط ويمسك بالصيد: سمكة فضّية عملاقة.

قال في نفسه:

- وجه الرسالة جلب لي الحظّ.

ثمّ تابع الصيد، وظلَّت السمكات تهجم وتعضّ، وهو يقبض عليها ويرميهـــا في حوض خاص، ولا يصدِّق ما يحدث... وكأَنّه انتقـــل إلى عالم مســـحور خطفه من واقعه، ودفعـــه ليتصارع مع الخيال، وما هو أَبعد من الخيال.

***

أقبل عليه يورغن، فأبصره غارقًا بين أمواج انتصاره، ولم يُـــخْفِ استغرابه، بل عَـبَّر عنه بقوله:

- إنّه نهار غريب حقًّا. لا ندري ماذا يخبِّئ لنا من مفاجآت.

أَجابه هانز:

- من جهتي اكتفيت... وأَنا أنتظر بشوق، لحظة وصولي إلى الشاطئ، كي أسرع إلى ولهمينا...

فقاطعه يورغن بلهجة بعيدة عن السخرية:

- معك حقّ، يا هانز. الموضوعُ يثير الحماسة. الواحد منّا لا يعثر كل يوم على رسالة غامضة.

***

لم تستطع ولهمينا أن تقرأ الرسالة. لكنها قدَّرت أنّ اللغة تخصّ شعوب غربي آسيا. قالت لهانز:

- أَعتقد أنّ الرسالة مكتوبة بالعربيّة. وأَنا أعرف صديقًا مستعربًا يمكنه أَن يترجمها لنا.

ردَّ هانز بهدوء.

- هذا لطف منك، يا ولهمينا، أقدّرُ اهتمَامَك كثيرًا.

فارق هانز الرسالة، بصعوبة. وعندما حاول أَن ينام مساءَ ذلك اليوم، لم يستطع أَن يغمض عينيه، مثلما كان شأنه دائمًا بعد عودته من رحلة صيد مظفَّرة.

كان يعود منتشيًا من هواء البحر، منهوك القوى من مصارعة السمك، فينام كالمخدَّر.

ظلّ أَكثر من ساعة يتقلَّب على الفراش، وأخيرًا تغلَّب عليه النعاس، فنام.

وفي المنام، راحت الأَمواج تكرُّ وتتدفَّق عند قدميه، أو تمسح وجهه وشعره، تغسلهما، وتتلاشى مُخَلِّفة في نفسه شعورًا بالراحة.

ثمّ ارتفعت من بين الأَمواج أصابع عملاقة، شدَّته بطرف قميصه، وراح هو يقاوم محاولًا التخلُّص منها، والأَصابع تتشبَّث به، وتجذبه إليها باستمرار. ثمّ سمع صوتًا يتفجّر، من أعماق البحر، مثلما يتفجَّر الرعد.

قفز من سريره، وراح يتمشَّى في الغرفة، مذعورًا. ثمَّ لم يلبث أن تذكَّـر أحداث نهاره، وأدرك أنّ هذا الحلم هو من بقايَا أحلام اليقظة... فاندسَّ في فراشه، وحاول الإغفاء من جديد.

وغفا.

وعـادت إليه أحلام البحر، فأبصر سـفينته تنتفـخ كالبالون، وتكبـر، وكأنّها أُصيبت بوَرمٍ مُفاجئ. ثـمّ امتلأت بالناس، أُناس من جميع شـعوب الأرض، كانوا يجلسون فوق دكَّة السفينة، أو يتمشَّـون، ويتفرَّجون على امتداد البَحر الشَّماليّ، والفرح باد على وجوههم. تساءَل، بينه وبين ذاته:

- من أين قدم هؤلاء الناس؟ ربِّـما هم سُـيَّاح، يقومون بزيارة إلى سواحل البحر الشـمالي. ولكنّ سفينتنا ليست سياحيّة، وهي غير مُـعَـدَّة لاسـتضافة هذا العدد. وليس فيها غرف منامة، ولا قاعات للطعام والشراب والتسلية. سفينتنا تتّسع، فقط، للصيّادين الأسوجيين، فمن أين جاء هؤلاء السيّاح؟!

ولم يعلم إلى من يوجِّه سؤاله. تقدَّم من جماعة تتمسّك بالحاجز الواقي؛ على طرف الدَّكَّة، اقترب من الجماعة وابتسم، فَظَـلَّتِ الوجوه متجهّمة. حاول أن يشـرح رأيه. يقول لهـؤلاء الناس أن يذهبوا إلى سفينة أُخرى سياحيَّة. لكنّ وجوههم بقيت مسدلة الستائر، جامدة.

وفجـأة أبصر طائرين غريبين يقفزان بين السـيَّاح، ثمّ يطيران ويحطَّان على حافة السـارية، حتّى إذا صاح أحدهم بهما، غادرَا المكان، وهبطا إلى أيّ موضع يتَّسع لقوائمهما الدقيقة.

كانا طائرين لطيفين، ريشهما أسمر، وأعينهما سوداء مكحّلة، وفكّـر في أنّه لم يبصر، في حياته، طائرًا أسـوجيًّا شـبيهًا بهذين الطائرين، فمن أين قدما يا ترى؟

خطر لـه أن يوجِّه سـؤاله إلى أحد السُـيَّاح. لكنّ صمتهم وجمودهم جعلاه يعدل عن رأيه.

إلتفت إلى مقدّم السفينة، فأبصر القبطان، يحمل خشبة ويهوي بها على الطائرين الوديعين.

إقتـرب هانز مـن القبطان، وحـاول أن يردعه، أن يقول له إنّه يعرف هذيـن الطائرين، وأن وجودهمـا لن يزيد ثقل السـفينة. لكنّ الضربة سبقته، وقفز الطائران معًا، وهبطا حتّى أعماق اللجّة.

***

صرخ أحد السيّاح:

- لقد غرقا. يا للطائرَين التاعسَين!

قال القبطان:

- كان عليهما أن يمارسا التحليق، لا الانحدار إلى اللجّة.

تصدَّى له هانز:

- ضَرْبَـتُـكَ أسقطتهما. أنت المسؤول.

ثم غادر القبطان غاضبًا، واتَّجــه إلى المكان الذي هوى منه الطائران، فأبصر اللجّة تنفتح، وتبتلعهما...

فكّر بينه وبين ذاته:

- ربما تحوَّلا إلى سمكتين.

ما كاد ينهي عبارته، حتّى انفرجت صفحة الماء، وطفت فوق السطح علبة رصاصية اللون، مربَّعة.

وفتح عينيه...

***

كانت الساعة قد تخطَّت موعد يقظته. وكان عليه أن يرافق ولهمينا إلى مكتب المستعرب، ليفكَّ له رموز الرسالة.

وبينمــا كان يســتحمّ ويحلق ذقنــه، راح يتذكّــر الحلم العجيب، ويفكّر في ســرّ الطائرين. ومع أنــه لم يحاول مرَّةً أن يفسِّر أحلامه، إلّا أنّه لم يَـقْــوَ على أن يفصل الحلم عن الواقع، فصلًا تامًّــا، وفكّر في أنّ علاقة ما تقوم بين الطائرين والرسالة.

أجل، كانت هناك صلة بين الحلم والرسالة.

المستعرب يقرأ، وولهمينا تكتب بسرعة الاختزال، كي لا تفوتها كلمة واحدة. وحين انتهى الرجل من القراءَة، التفت اليها وسأل:

- والآن، ماذا ستفعلين بها؟

ردَّت ولهمينا:

- الرأي لهانز، هو صاحب الرسالة.

قال المستعرب:

- لا هو، ولا نحن... كنّا واسطة فقط. واسطة بالمصادفة. وعلينا أن نؤمِّن وصول الرسالة إلى صاحبتها.

ثمّ رفع الرجل منديله، ومسح نظّارتيه جيّدًا، من آثار بخار غبّشهما، إذ لم يسعه إلّا أن يذرف دمعتين، على الطائرين اللذين فقدهما هانز في الحلم.

***

أمّا هانز فقد خرج مع ولهمينا مطأطأ الرأس حزين الفؤاد. وطلب إليها أن تساعده بكتابة العنوان على غلاف ضمّنتْهُ الرسالة... وكتبت ولهمينا: « إلى السيّدة وديعة الهاني - قرية الشماء - لبنان». ولم تجد أيّة ضرورة لكتابة عنوان المرسل.

وقبل أن يودِع هانز الرسالةَ صندوقَ البـريد، سارع إلى أقرب مكتبـة، وصوَّرها ليحتفظ بها، ذكرى، وحكاية، يرويها في المستقبل لأولاده، وربَّـما لحفدائه...

***

وهذا نصّ الرسالة:

«يا والدتنا الحبيبة:

نقبِّل يديك. ونطلب دعاءَك وبركتك. نحن اليوم، فوق باخرة، تـتَّجه بنا من أسـوج إلى ألمانيا التي غادرناها قبـل أيّام، طردًا، بعدما عجزنا عن تحصيل إجازة للعمل أو الاقامة. فكَّرنا: ربَّـما الناس هنا أرحم. لكنّهـم رفضونا كذلك. نفضونا من فوق أرض هم كما تنفضين الغبار عن بسـاطك. تعلمين كيف سـافرنا فوق سفينة شحن، وفكّرنا في أن ندبّر أمورَنا في الخارج.

كم خاب أملنا!

إذا كان بلدنا لا يُوسِـعُ لنا رقعةً صغيرة بين المقيمين فوقه، فهل نعتب على بلاد الغرباء؟..

كم سـمعنا هذه العبـارة، يا أمّنـا: «لبنانيّون؟!.. لا تأشـيرة دخول... اخرجوا»...

وخرجنا من ألمانيا، من النمسا، من بريطانيا، من الدانمارك، من أسوج، من كلّ بلاد الأرض. ونحن الآن في أحد المراحيض، نحرِّر

لك رسالة، قد تصلك بعد أيّام، وقد لا تصل. شئنا فقط، أن نؤكّد لك أننا نفّذنا الوصية، خضعنا لصوتك الذي لاحقنا حتّى حدود البحر:

«فقدتُ شابّين، يكفيني... أُخْــرُجا أنتما... إذهبا إلى أقاصي المعمور، وابقيا على قيد الحياة»...

يا أُمّنا الحنون،

منذ أشهر، ونحن نسعى إلى تنفيذ بعض الوصية؛ عملنا فوق ســفن الشحن، في الموانئ القذرة، في أقســى الظروف المعيشيَّة والطبيعيَّة. نســينا الشــهادات الجامعية، ودفء حضنــك، وبيتنا الصغيــر في الجبل. وكنا نعلِّل النفس، بأنّها أيّام، وتمضي، ونعود إليك، إلى وطننا الغالي، نعمِّره بسواعد المحبة؛ نعمِّره، لأولادنا، وأحفادنا، ولكن... ظلت الظروف تعاكسنا.

كذبنا عليك، في رســائلنا السابقة، حين أخبرناك عن «النعمة» التــي حلَّت علينا، فــي المغترب، و«الحظّ» الــذي رافقنا، لحظة غادرنا الشاطئ، وبقي يلاحقنا كظلّنا.

كذبنا، ومثَّلنا، وشهدنا شــهادات زور. والآن، نكتب لنطلب غفرانــك. اغفري لنا، يا أُمَّنــا. أُذكرينا فــي صلواتك، ودعائك، خصوصًا الآن، ونحن مقبلان على مغامــرة قد تفتح لنا الأبواب المغلقة...

من يدري؟ فقد يعتبرون عملنا بطولة خارقة، فيســمحون لنا بالبقاء فوق أرضهم، لنعمل في الحقول أو المصانع.

عفوًا، إذا لم نخبرك الآن، عن نوع المغامرة التي نوينا الإقدام عليها. نعلمك بذلك في الرسالة المقبلة، إن شاء الله... أحدهم يطرق الباب، علينا ان نسرع.

لك يا أُمّنا الغالية، قبلاتنا، ومحبّتنا، ودمتِ مكرَّمة معزَّزة لولديك،

سمير ونعيم

ملاحظة: نرجو مِمَّن يتسلّم رسالتنا هذه، أن يبعثها إلى والدتنا على العنوان التالي، وله منّا جزيل الشكر:

السيدة وديعة الهاني

قرية الشمَّاء

لبنان»

لِقَاء حُلُمَيْن

حدث كلُّ شيء، مثلما يحدث في القصص والروايات التي يكتبها الأُدباء والشعراء ويزخرفونها بالكلام الجميل، والأُسلوب المبتكر، ثم يذرّون فوقها باقات من الشعر، ويطلقونها على متن الخيال، لتنهب المسافات نهبًا، وتخترق أذهان القراء، فتهزّ أعماقهم، وتزرع في القلوب الشغف والوَلَه.

***

والذي حدث لم يكن في الحساب.

رُبَّما كان خاطرةً في البال، حُلُمًا بعيدًا مثل كلّ الأَحلام التي تجول في بال الصبايا، خصوصًا إذا كنَّ مثلي، مغروسات عند حدود نائية من الكون، في ريف هادئ فقير، يتحدَّث مع العالم الخارجي بالرموز والإشارات.

أقول، ربَّما حلمت بأن أكون بطلة قصّة ولم أجرؤ، مرَّة واحدة، على أن أختار البطل. ذلك أنّ الفتيان المتخلِّفين بين

أزِقَّـة القرية، لا يثيرون الخيال. فهم جميعًا متشابهون في البساطة والتخلِّي عن أيّ طموح، قانعون بـــما تضعه الأرض بين أيديهم من نتف العيش... لم أكتشـــف عند واحد منهـــم خيالًا جامحًا، مثل الخيال الذي عذّبنـــي، منذ أن تفتَّح فيَّ الوعي وصرت قادرةً على التمييز بين كلمة لطيفة تقطر عذوبةً وحنانًا، وأُخرى تَغرز في القلب مثل أظفار شجرة العلّيق.

وصرت قادرةً على التمييـــز بين وجه الفتى الفلّاح، الذي ترك معالمه تنمـــو بعيدًا عن التهذيب والتشـــذيب، وذلك الطيف الذي يتراءى لي في أحلام اليقظة والمنام، أنيق الهندام، وسيم الطلّة، جريئًا مقدامًا، يخطف الأنفاس بشجاعته، ويهزُّ جذور القلب بوهج نظراته.

***

هذه الأفكار كانت تتجاذبني، وأمتطيها، في بعض الأحيان، لأهرب من الواقع، من لهيب حرائقَ تشعلها شمس تمُّوز في حقولنا، ومن صقيعٍ يجمِّد يديَّ الناحلتين، حول المعول أو المنجل.

أَجل، أنا فلّاحة ابنة فلّاح، ومنذ أنهيت دراســـتي المتوسّطة، أفهمني أبي أنّه يحتاج إلى مساعدتي في الحقول، عوضًا من إخوة لي هاجروا وأَقاموا في دنيا الاغتراب.

لذا، كان عليَّ أن أُرافقه، ولا أُنفق الوقت في الخمول والكسل، وأشغال الإبرة، شأن المرفهات من بنات قريتي.

وبـــما أنّي كنتُ ابنةً مطيعة وصغيرة، فلم يكن أمامي ســوى الانصياع وتلقّي الأوامر وتنفيذها.

***

من شَـــقّ الفجر حتّى غروب الشـــمس، تظلّ عينـــاي منفتحتين، إلى أن يطبقهما النعاس. ويظلّ جســـمي الناحل يتحرّك في خدمة الأرض والعائلة، والأرض تحتاج إلى الخدمة، في كلّ الفصول.

والذي يبقى متحرِّرًا من القيود هو ذلك الخيال الجامع الحرّ، المتدثّر بأَلف لفافة ولفافة... البعيد عن أنظار الآخرين وأسماعهم.

مع الخيال، أَنشـــأتُ صداقة متينة وأَقمـــت حِلْفًا قويًّا، و إلى هذا الصديق صرت أهرب فيستقبلني بالترحاب، يفتح لي الأَبواب لأدخل كملكة. يفرش لي أفخر الرياش، وينثر فوق جسمي أثوابًا حاكتها الغمائم ودوائر قوس قزح.

وفي حضـــرة الخيال، صار يطيب لي الجلوس والإِصغاء، ثمّ الانطلاق في الحديث بحرّية.

كم كان مدهشًـــا ذلك الكلام المتدفّق من بين شفتي. كم كان مدهشًا وبعيدًا عن الواقع!... وكنتُ أتساءل:

من غرسه فوق لساني؟ وكيف نَـمَا وأَثمر؟

ولم أكــن أطلب الجــواب، إذ كانت تغمرنــي، خلال تلك اللحظات الســحريّة أمواج من الحنان والســعادة تنسيني حالي، وإرهاق الجسد، فلا أعود أطلب من الدنيا سوى الهدوء.

***

إنّما الواقع الواقف في البــاب ما كان ليغفل عنّي مطلقًا. بل كان مستعدًّا ليمدَّ يده وينتزعني من جنّتي، ليعيدني إلى بيت طاعته.

وكنت أَعود صاغرة. دائمًا، كان عليَّ أن أعود، فأمسح العرق عن جبيني وعنقي، وأشرب الماء الغالي من دورق لا تظلّله شجرة، ثم أَشدّ الكوفية حول رأسي، أتَّـقي بها الشمس الحارقة، وأمضي في العمل.

***

وسطَ حقل القمح كنت في ذلك الصباح الربيعي، أقتلع الحشائش الغريبــة، والأعشــاب المؤذية من بين الغرســات الثمينة. أقتلعها بأصابعي كي لا يصيب الأذى الســيقان الطريئة، الواعدة بالموسم الجديد. وكان أبي في الطرف الآخر من الحقل.

وبينمــا كنت منحنية أُتابع عملــي، لمحت ظلًّا غريبًا، يجري أمامــي، فوق النبتات الخضراء. حســبته غمامة عابرة، أو نســمةَ ريح، مثل كلِّ النســمات الناعمة التــي تهبُّ علينا في هذا الوقت من السنة. لكن الظلَّ عاد يجري أمامي، ويركض في عينيّ.

رفعتُ رأسي صوب الفضاء، فأَبصرتُ سربًا من الطيور القواطع، عائدًا من هجرته في البلاد الجنوبية الدافئة، ارتاحت نفسي للمشهد الطبيعي المألوف. ففي مثل هذا الوقت، تمرّ تلك الطيور في رحلة عودتها بعدما كانت قد ودَّعتنا في شهر أيلول. تعود وقد نقص العدد، وتفرَّق الصحب، ولا تُحاط عودتها بذلك الاهتمام أو الحنين الذي يثيره وداعها الخريفيّ كلّ عام.

***

أنساني منظر الطيور عملي إلى حين، فجلست فوق صخرة، ورحت أَتأَمَّلها تنساب هادئةً، مثل سفن تمخر عباب بحر مستكين، ثمّ أبصرت السرب يدخل في جبل من الغيوم الربيعية البيضاء، ويخرج متغلّبًا عليها، منتصرًا على التجربة.

ثم ماذا؟

غمامة أخرى؟...

كان الجسم المتحرِّك المقبل صوب الطيور غريبًا في شكله، وطريقة تحرّكه، فلا هو غمامة، ولا طائرة!

انتظرت حتّى يحيد عن درب الطيور، أو تتجنَّبه تلك المخلوقات اللطيفة، فلا تُصاب بأذى، ولكن!...

يا الله!...

ما الذي أراه؟... الجسم الغريب يصطدم بأحد الطيور، ثم يختفي، ويسقط من الفضاء شيء لا شكل له، ولا يحدّده حجم. يسقط فوق رجمة صخور على مقربة منّي، بينما تتابع الطيور رحلتها هادئةً مطمئنة.

***

هرعتُ إلى الرجمة، ألتقط الجسم الساقط من الفضاء، وأنا أحسبه طائرًا أُصيب بلطمة أفقدته توازنه. لكن لا... الذي وقع ليس طائرًا. إنه أقرب إلى خرقة مهترئة.

اقتربت منه بحذر، وأخذته بين يديّ، ورحتُ أَتحسَّس الخروق الباقية من «بالون» طائر، نَفَّسَتْه نقرةٌ من منقار باشق غاضب... وقد علق بما تبقّى من ذلك البالون ظرفٌ من ورق، مثل الظروف التي نستخدمها أَغلفةً للرسائل.

كان ورق الغلاف والرسالة ناعمًا، شفَّافًا، وحاملًا كلمات، حاولت قراءتها، مستعينة بما علق في الذاكرة من دروس معلّمة اللغة الفرنسية، ونجحت.

***

الرسالة مُوَجَّهة إليَّ، من فارس أحلامي. من الفتى الذي تراءَى لي في أحلام اليقظة والمنام مئات المرّات.

لم تحمل الرسالة أيّة صورة لصاحبها. غير أنّي استطعتُ أن أرسمه من خلال كلماته:

حبيبتي،

أيّتها الغريبة التي لم أُبصر لها وجهًا، أنا أحلم بك دائمًا. أنا موجود في هذه الأرض الغريبة والبعيدة عن أرض بلادي، في مناخها وجغرافيّتها. إنّي أخدم مع زملائي الجنود في قوّات الطوارئ الدوليّة، في جنوب لبنان. أخدم وطني من خلال خدمة الآخرين. وأحمل السلام إلى الأرض المحترقة. هذا هو شعارنا على الأقلّ...

أيّتها الحبيبة المجهولة،

أنا اليوم في عطلة، وأكاد أموت من الضجر، إذ لا يُسمح لنا بالتجوّل بعيدًا عن مخيّماتنا، وخارج الدائرة المرسومة لنا. لكنّ تلك الخطوط أعجز من أن تحدَّ الخيال، وتحجزه في قفصها الضيق. وقد أوحى إليَّ خيالي أن أبتكر هذا الأُسلوب لأُخاطبك. ثم أبعثَ الرسالة في «بالون» عبّأته بغاز خاص، يحمله إلى مسافة بعيدة....

أتراه يصل إليك في بلادي؟

أم أنّه يلتقيكِ في بعض الطريق؟

حيثما كنتِ، وأينما تَبَلَّغتِ الرسالة، أرجو منك أن توافيني إلى هذا العنوان، أو أن تكتبي إليّ وتخبريني أنّك تبلَّغتِ الرسالة.

لماذا أخاطبك أنت بالذات؟

لست أدري.

هناك شوق بالغ يدفعني إليك، وكأنّي أستجيب لنداء أطلقتِهِ أنتِ... فهل هذا صحيح؟

بعض الناس يدخلون الحياة بالأرقام والحسابات، وأنا أحاول دخولها معكِ عن طريق الحظّ.

فهل يغفلني حظّي، أم ينجدني وينتشلني من هذا السأم، ويجعلك حبيبتي أبدًا؟

نيلز ج.

***

تمامًا، مثلما يحدث في القصص، والروايات ذات النهايات السعيدة. هكذا انتهت حكايتنا.

أو أنّها هكذا بدأت؟

وأنا مسافرة معه لقراءَة فصول جديدة...

إنّهم يخدَعونَ العَصافير

الدنيا ضَباب.

الأشجار ترفع رؤُوسها، تَــرُدُّ للسماء تحيَّاتِـها المنعشة وأنا أنقل خطواتي فوق أرض غريبة.

- لماذا أنا هنا؟

أتساءَل. ولا أجد من يردُّ على السؤال.

وأمضي، أسير وحدي. ورائحة المدينة تعبق في أنفي، ونكهة الجديد تتشابك في عروقي، وتخترق مسامَّ الجسد.

«هذه الأرض ليست أرضي...

هذه المدينة ليست مدينتي.»

أُذَكِّر نفســي على إِيقاع خطًى كانــت خُطاي، قبل أن تنفصل عنِّــي، لتنتمي إلى أرض قصدتُها للراحــة؛ وطلبًا للمزيد من تلك الراحة، قرَّرت أن أبدأ بزيارة حديقة الحيوانات.

***

- لماذا حديقة الحيوان، وأنتِ في هذه المدينة العظيمة؟!

- أَرهقتني دنيا البشر...

تسجِّل الصور، ويتحرَّك الشريط الخارجيّ، ليلتقي شريطًا آخر من أيّام الطفولة، وأسمع صوت الصغيرة:

- لماذا لا نأتي إلى هذه الحديقة كلَّ يوم؟

فأُجيبها:

- الطريق طويل، والسفر مكلف.

تردُّ عليّ بسذاجة الطفولة:

- نأتي بالطائرة. هكذا نختصر المسافة.

- والتكاليف؟ تكاليف الرحلة، أعني، من يدفعها؟

- البابا.

أُرَبِّتُ خَدَّ الصغيرة، وأصرفها لتلعب مع الرفاق في ساحة القرية، بين الكروم، وبساتين الزيتون والتفَّاح، وأعود أُتابع تجوالي، وأُفكِّر في أن أحمل إليها، من كلّ زاوية، حكاية وصورًا كثيرة، وأقول لها: «أرجو ان تعوِّضَكِ قصصي، وهذه الصور، من الرحلة».

وتزمّ الشفتين، غير راضية:

- أريد أن أُرافقك... لا شيء يعوِّضني من ذلك.

وأُجيبها:

- في المرّة المقبلة.

فتنتفض معترضة:

- هذا ما تقولينه في كلّ مرة، ثم تسافرين وحدكِ.

***

أجل، وحدي قصدت هذه الحديقة العجيبة، والتي غرسها الإنسان بكلّ مخلوقات الأرض، وبقي هو حارسًا عند الباب.

***

- لماذا تظلُّ جامدًا؟

أسأل حارسًا لفت نظري، فلا يردّ عليّ.

وظيفته تأمره بـأَلّا يغادر الباب، وإلّا انهـارت الجدران من حوله. وهذا ما يفعله الحارس الآخر، وسواه.

- كلّكم حرّاس في هذه الحديقة؟ ماذا علّمكم معشر الحيوان؟

أَطرح أسـئلة لاسلكية، ولا انتظر جوابًا. أعلم أنّهم تعلَّمُـوا الدرس الكبير، الدرس العظيم... الصمت العظيم.

***

- لا. لا يجوز لك أن تفتحي هذه النافذة.

أسـمع أوّل صـوت بَشَـرِيّ يعلو علـى زقزقـة العصافير، وصرخات الطيور.

وألتفت إلى مصدر الصوت، فأبصره بقبّعته المزركشة، ومعطفه البرَّاق، وكأنّه واحد من «طيور الجنّة»، كبر زيادة عن الحجم الطبيعي، يتأمّلني، مثلما يتأمَّل العاقل مخلوقة فقدت رشدها ويكرِّر أمره:

- لا تفتحي النافذة.

أسأله:

- أوتُسمّيها نافذة؟

فيهزّ الحارسُ رأسَه مجيبًا:

- طبعًا، ألا تَرين القفل والمفتاح؟

- لكنّها لا تَصدُّ الشمس والمطر، ولا تردُّ نسمات الهواء.

- هذا هو المقصود.

- أُنظر، أستطيع أن أُخرج أصابعي من تشابك أسلاكها..

- أحْسَنْتِ.

- وماذا بقي من النافذةن يا سيّدي الحارس؟...

يُقهقه «طائر الجنّة» الذي كبر زيادة عن اللزوم، ويشير بيده إلى الفضاء فوق رأسي:

- أُنظُري.

وأَرفع الرأس، فَأبصر أغصانًا تتشابك، وأوراقًا تميل إلى الصفرة، وأُخرى احمرَّت من تعب الرحلة، وحفنة غيوم، تتعانق ثمّ تفترق، ومئَات الطيور.

وتظلُّ يد الحارس مرفوعة إلى فـوق... وأنا أهبط، بنظري، مـن ذلك العلوّ الشـاهق. ويقرأ في عينيّ الجهلَ وسـوءَ الفهم، فيُكَـرِّر أمرَه:

- أُنظري.

ومن جديد، أُحدِّقُ بدقَّة، بإصرار... وأفَـكِّر في أنّه، خَـلْـفَ هذا المشهد الأرضيّ، لا بُـدَّ من أن يكون مشهد آخر، من خارج الأرض، وأبعد مـمَّـا تستطيع العدسـة المبصرة أن تسجّل. ثم يصطدم نظري بشريط تشـابكت خيوطه، في ذلك العلوّ الشاهق، وكأَنَّـما النافذة انتقلت من مكانها، في مستوى قامتي، وانتصبتْ فوق رأسي.

أُشير إليه، بأَنّي لا أفهم، وَرُبَّـما كان كلّ ما أُبصره حُـلُـمَ ليلة خريفيّة، وأنّي لم أَقم بهذه الرحلة، طلبًا للاستجمام، ولا قَـرّرْتُ أَن أبدأ بزيارة حديقة الحيوانات. وهذه الطيور، ربَّـما كانت من بعض طيور الجنَّـة التي تُخبر عنها الكتب السماويّـة...

***

يتقدّم «الطائر» الكبير الحجم، المزركش الشكل واللون، ولا تعود بيننا سوى مسافة همس الشفتين، وأسمعه يفحّ مُؤَنِّبًا:

- ظننتكِ أشدَّ ذكاء.

- هذه الصفة خلعتُها عند مدخل الحديقة.

- وملكة النظر؟! هنا لا تحتاجين إلى الذكاء. فقط افتحي عينيك.

وفتحتُ عينيَّ وفوجئت... وكأنّـــما يـــدٌ عملاقة، امتدَّتْ إلى كلّ ما كان موجودًا فوق رأســـي، وكالت لـــه صفعة قوية: فلوت الأشـــجارُ أعناقها، وتفرّق شـــمل الطيور، ولم يَـبْـــقَ بيني وبين الفضاء، سوى قبّة مشـــبكة، وقبّة لا تعرف أين حدودها، بل تمتدّ على مساحة امتداد النظر.

أطلقتُ صرخة عظيمة:

- ماذا أرى، أيّها الرجل؟! قل لي، أين نقف الآن؟

ضحك الحارس، ولم يردّ. وقرأتُ في عينيه كلمات الانتصار والغلبة.

أمسكتُ بكتفيه ورحت أهزُّهما:

- قل لي إنّي لست في حلم... منذ متى هذه الشباك فوقنا؟

- من قبل أن تأتي.

- لكنّي لم أبصرها.

- وهذا ما دعوتكِ لتفعليه، منذ أن دستِ أرض الحديقة.

- والطيور؟ ماذا تفعل الطيور؟

- تمارس حياتها العاديّة، كما ترين.

- والحرّية؟ حرّية الطير، والفضاء الرحب؟..

- هل أسْـمَـعَـتْـــكِ الطيور شكواها؟... إنّها تكتفي بالفضاء المـــحدود، والشـــجر، والأغصان، وتلوُّن الطبيعـــة مع تحوُّلات

الفصول. وعندها المأكل والمشـــرب، ومـــاذا تطلب، مخلوقات مثلها، أكثر من هذه النعمة؟

- لكنّكم تحجزون حرّيّتها.

- ماذا تقولين؟!

سؤاله الأخير هبط عليّ كالرعد، فأجبت بصوت خافت:

- أسألك: من هو صاحب هذه الفكرة العجيبة؟...

- اللورد «سنودون».

- ومن يكون، حضرته؟

- صهر الملكة، سابقًا.

- اللورد سنودون؟ تعني المصوِّر المشهور؟

- هو بعينه.

- هو اختار للطيور هذا القفص الكبير؟!

- لا تُســيئي الفهم، ســيّدتي. هو صاحب الفكــرة. تبرَّع بها لحديقة الطيور، لتمارس الانضباط والحرّية، في آن.

- لذلك ابتكر لها القفص الكبير!

- سَـمِّيــهِ ما شـئتِ، فالطيور لا تعترض، بل تتابع عيشــها بسلام. ولكن قولي لي، هل أعجبتك الفكرة؟

- بــل أذهلتني، يا ســيّدي الحارس. أُنظــر، أكاد أُموت من شــدّة العجب والدهشــة. هذا الابتكار النادر أيقظني من غفوتي، وأعادني من مناطق الحلم، إلى أرض الواقع، وفتح عينيّ... أجل،

فتــح عينيّ. وهذا أهمُّ ما حدث لي. ومن قبل، كنت أَظنُّ أنَّ هذه الطيور التي تزقزق بكلّ الأنغــام، وتنتقل، من فوق غصن، لتحطّ فوق غصن آخر، وتبني أعشاشها في عباب الأشجار، أو تلجأ إلى أعشاش مفبركة... كنت أظنّ أنّ هذه المخلوقات الوديعة، اللطيفة، وحدها، من بين سكّان الحديقة، تملك القدرة على أن ترفعني من حيث أنا، في مستوى التراب، وتنفض عنّي ثقلًا يسمّرني بالقشرة اليابســة من الأرض، لتضعني في مدى التحليق الشاهق، في مناخ الحريَّــة المطلقة، وإذا بيد اللورد الكريم تمتدّ، لتفرش شبكة في وسع القبّة الزرقاء، ويعجز النظر، مهما حاول وسعى، عن أن يضع لها الحدود، فلا يستطيع أن يعرف أين تبدأ وأين تنتهي...

وقاطعني الحارس:

- بل تنتهي عن قدميكِ، يا ســيّدتي... عند موطئ قدميك... تعرفين، طبعًا، أنّ الطيور لم تختزن، عبر العصور، حكمةً اختزنها الإنسان؛ ولا كســبت العصافير معرفة سوى ما خصّتها به الطبيعة من ملكات غريزيّة، تنتقل من فوج إلى فوج؛ وهذا ما يَسَّر الأَمرَ، على الإنســان، فابتكر لها مسافة تترك لها حرّيتها، لتمارس كلَّ ما تحتاجــه بالغريزة، حتّى إذا ما شــاءَت أن تنطلق أبعد من المدى المخصَّص لها، اصطدمت بالجدار الشفَّاف، الذي تفضّلتِ ودعوته «القفص الكبير».

قلت بصوت منخفض جدًّا:

- أنتم تخدعون العصافير أيضًا!

وطرح الحارس سؤاله بسخرية لاذعة:

- وأنتم؟ ماذا تفعلون، أنتم، بالطيور والعصافير؟ أوّلًا تحتجزونها في أقفاص؟

حَنَوْتُ رأسي وأنا أُجيبه:

- نعم، لكنّها أقفاص صغيرة... صغيرة جدًّا، حتّى تكاد تستوطن رموش العين.

- والأقفاص الكبيرة، لمن تخصّصونها؟

- نعم؟... ماذا قلت يا سيّدي الحارس؟!

***

سؤَالي صرخة، أطلقتُها في الفراغ. فقد اختفى الحارس. توارى، ولم يلتفت خلفه. مضى من دون أن يجيب عن سؤالي، أو يردَّ عليّ، بسرعة البرق توارى، ساحبًا معه نبرة السخرية في صوته.

وبقيت وحدي. واقفة وحدي، مثل علامة استفهام كبيرة في حديقة تزخر بالحياة، وسط أجواء تختلط فيها زقزقة العصافير، بصرخات الطيور الغاضبة، والطيور الفرحة، وتلك التي لا تدرك معنى للفرح أو للغضب.

***

وعادت الصغيرة من أيّام الطفولة، تشدُّني من يدي وتسأل:

- لماذا أغضبتِـه؟

- أغضبتُ من؟..

- هو...

وأشارت بإصبعها إلى زاوية تشابكت فيها الأغصان، بالجذوع القديمة. وأدركتُ ما شاءتْ أن تقوله، فتجاهلتُ كلماتها.

لكنّها ظلّت تهزُّ يدي بإلحاح:

- لماذا لم تردِّي على سؤال الحارس؟

فقلت لها بحزم:

- إنّه لا ينتظر الردّ.

- بل تهرّبْتِ... أنتِ تَـهَـرّبْتِ من الإجابة عن سؤاله.

قلت لها، في محاولة لإقفال باب الكلام:

- ليس لديّ جواب.

خفضتِ الصغيرة بصرها، مثلما يفعل الأطفال، حين يصطدمون بحواجز الكبار؛ ثمّ بدأت تفكّ عقدةَ أصابعها المتشابكة مع أصابعي، وأبصرتُها تتحوّل إلى عصفور جميل الشَّكل، حزين العينين، يرفُّ حولي، يزقزق، ينثر أنغامه. وبين النغم والنغم، تُفلِتُ منه كلماتٌ سَاذَجَة، وتعلق بعض كلماته في سمعي، مثل قطرات الدبق: «أنتِ تهربين... أنتِ، تهربين من الجواب»...

وأفتــح فمي. أُحاول أن اشــرح للصغيرة أُمــورًا لا تدركها، فأَتذكَّر أنّها لم تعد معي، فأَصداءُ الزقزقة، وصرخات الطيور، ترفع بيننا حاجزًا كثيفًا.

أسحبُ قدميَّ من موقعهما فوق الحشائش النديّــة، وأتوجَّـهُ نحو الباب، فأُفاجأ بخيمة ضباب، تهبط عليّ من تشابك الاغصان، من فوق رُؤوس الشــجر، من الفضاء الذي لم يَـبْــقَ فضاء، بل أمسى شبكة عملاقة، من تصميم «اللورد» الفنّان.

الطَّاحونة الضَائعة

أعرفُ الطريقَ جيّدًا، شِعابُها محفورة في الذاكرة، مُسيَّجةٌ بأشجار الرمّان والسفرجل والتوت البرّي. وهي تهبط بي من سفح الجبل، انحـــدارًا حتّى أعماق الـــوادي، حيث تجري ميـــاه النهر، غزيرة مستعجلة.

***

وتجري مياهُ النهر بين غابات القصب والغزار، متجاوزةً شـــموخ شـــجر الحور، وعنجهية الدلب، واستِحْيَـــاء الصفصاف... لتمرَّ بشجرة متميّزة عن سائر ما ينبت في وادي الخير من أشجار، فهي تفـــرش ظلالها في كلّ صـــوب، وكأنّها أُمٌّ ملهوفـــة، تودُّ لو تضمّ الكـــون إلى صدرها... وتبـــثّ عطرها في الجوّ، ومن «عِـــبَابها» تتدلّى الثمرات، خضراء القشـــور أوّل الصيف، ثم ناضجة، تُغري بـ«المرشقة» مع حلول شهر أيلول.

تلك شجرة الجوز.

وظلّها يُخيِّـــمُ على المطحنة العتيقة، المتوارية عن الأعين، مثل عذراء خَفِـرَة.

ومع مرور الأيّام، كانت المطحنة تزداد خجلًا وانكماشًا، بينما تُمعن شجرة الجوز، تشبُّثًا بالأرض، قاعدة جذورها، وبالفلوات، مسرح تأمُّـلاتها ومربض أحلامها.

***

وكنتُ في ذلك العمر المبكر، والموغل في البعد، حين خطر لأبي أن يستأجر المطحنة من صاحبها فيديرها، ملبّـــيًا حاجات جيرانه القرويّين، مقدِّما لهم الخدمات، دقيقًا لا غِشَّ فيه، وحبوبًا ذِكْـــرُ اسمها يثير الشهية.

***

حتّى اليوم ما زلت أجهل الســبب أو الأســباب التي دعت وَالدَنا إلى التخلِّي عن أرضه طوال تلك الســنة، فلا يعود يفلح أو يزرع ويرعى موسم الزيتون والعنب، بل ينصرف إلى العمل في المطحنة.

ولكنّي أعلم جيدًا أنّ البذور التي غرســتها تلك التجربة، في ذاكرتي وفي سواد عيني، لن تفارقني حتّى نهاية العمر.

فجأةً انتقلتُ من القرية وحياتها الواقعية المحدَّدة بالمواســم، السائرة على ايقاع قوافل الفلاحين...

انتقلتُ من هناك، إلى دنيا من المفاجآت والحكايات الاسطورية.

كلّ إنسان يقصد المطحنة، يحمل معه قصّة... فلا يكاد يبدأ بالكلمة الأولى، حتّى نخشع منصتين ونخرج من جلودنا ومن ألعابنا ومشاريع الشيْطنة، فنجلس حوله، على دكّة ضيقة، ونستمع...

ونستمع إلى الحكايات الطويلة، على أَنغام حجر الرحى، وهدير المياه المنحدرة من فجوة «السِكْر» وكأنّها تُعلِن، بالصوت العالي والذي لا يقبل الجدل، أنّها أنهتِ المَهَمَّة، وهي الآن عائدة إلى مصدرها.

***

وكان أولئك الفلّاحون الطيّبون يحملون مع حكاياتهم نكهة قُراهم، وأسماء جديدة، وأخبارًا تكون صادقة في بعض الأحيان، ولكنّها لا تلبث أن تشطح على لسان أحدهم، فتنزلق إلى عوالم الجنّ والغيلان.

***

وأيّ مطلب، يبقى لطفلة لم تتجاور السادسة، أكثر من أن تسجّل اسمها في مثل هذه المدرسة، وتعيش على الطبيعة، حتّى إذا

فرغتْ جَعْبَةُ الكلام والحكايات، قامت تجري مع إخوتها، بين البساتين، وتمتطي صهوة المغامرة حتّى أقصى الحدود... فهي تارة تتسلّق شجرة على حافة الشير، (وأدنى هفوة منها تؤدّي بها إلى أسفل الوادي...) وطورًا تلاحق الحشرات والزواحف وهي لا تميِّز الصديق بينها، من العدوّ!

وإذا ضجرت من اكتشاف الطبقة الظاهرة من التراب، راحت تحفر لتتعرّف إلى ما تخفيه الأرض الأمّ، بين ثناياها، من غرائب البذور أو الجذور.

***

كان هذا عالمها النهاري، عالم الحركة الدائمة، والمفاجآت السارة؛ حتّى إذا ما أقبل المساء، وانتشرت الظلمة فوق النهر وضفّتيه، وغطّتِ الأشجارَ، وهَبطت أهْدَاب الورق، تهمس له همسها الناعم الحنون، انتقلت الطفلة إلى عالم أسمى من الأرض وأبعد ممّا يطاوله الخيال.

فكلّ صدى تسمعه، يصبح رمزًا لعالم تجهله، وتتوق إلى معرفته...

وكلّ شعاع نور يبرق وسط تلك الظلمة، يحمل إليها وعدًا من كونٍ بعيد...

وكلّ رفّة جناح، لطائر أقلقهُ ليلُ الرحيل، يفتح أقنيةً من النشوة في عروقها...

***

كـــم كانت تحبّ الليل، وتنتظره، وتتهيّـــأ لقدومه، فتأوي إلى كـــوخٍ بناه والدها، فوق ســـطح المطحنـــة، صنعه من أعمدة الخشب وأغصان الشـــجر، وفرش أرضه بحصير من القشّ، وجعل فـــي زواياه كُوًى تتَّســـع لانفتاح كلّ عيـــنٍ تتوق إلى استقبال الفجر.

وكانت تحسّ، وهي تندسّ في فراشها الرقيق الحواشي، بأنّها تتربع فوق عرشٍ أعدّتْـــهُ لها الملائكة، ثم جلستْ حولها، تسهر على حمايتها وتأمين الراحة والسعادة لروحها اللطيفة.

***

وانطوتْ صفحةُ العام. وتابعتِ الصفحاتُ تساقطهَا من التقويم.

سنةً بعد سنة.

والطفلةُ لم تَبْقَ طفلة، وأرض الحلم صارت نقطة منســـيّة في ثنايا الذاكرة، حتّى كان...

***

صباح جديد، تتلقّفه مع شمس خريفية ضجرة.

وهـــي وَعَدتْ ابنتهـــا، منذ الليلة البارحة، بـــأن ترافقها إلى ذلك الوادي.

أي وَعَدَتْ بأن تخرج من العاصمة:

من تشابك الخطوط المقطوعة، والدروب التي لم تَعُدْ دروبًا، والمنازل المسكونة بأصداء الأيّام الراحلة، والزوايا الباقية تسجّل العتب...

وَعَدَتْ:

بأن تأخـذ إجازة من حياة تربطها، منـذ أن يبزغ الفجر حتّى تغيب الشمس، مثلما يُربط بغل الناعورة إلى وتده ويدور.

وهي لا تدور.

منذ أشهر ودنياها تدور بها، وهي تُـلَـبِّـي إرادات الغير:

الذين فرضوا على بلدها الحرب.

الذين دكُّوا منزلها.

الذين شرّدوا أولادها.

الذيـن سـلبوها النوم والأحـلام، ثمّ ما تبقّـى من متاع الدنيا...

وتُـلَـبِّـي إراداتٍ تُـفْرضُ عليها من قريب:

من كلّ عامل يحمل أدواتِـه ويدخل بيتها (بعدما رُفِعَتْ عنه حصانة النوافذ والأبواب) ليدقّ فيه مسـمارًا جديدًا، ويحمل معه وعدًا بقيامة الدار...

وتأخذ إجازة:

من العمل، والتعب، والانتظار، والرتابة، والخوف، والقلق... من الغد، والأخبار، والصحف، والراديو، والتلفزيون، والمراسلين

الأجانب، والسياسيين، والمندوبين، والمهتـمِّين بمصيرنا، والذين حفروا قبورنا...

قالت:

- نعم، آخذ اجازة يا ابنتي. يوم واحد لن يقدِّم ولن يؤخِّر.

***

وهـي تحتلّ مكانهـا قرب الصبيـة، على مقعد السـيّارة، كانت مستسلمة للتأمّلات، سـارحة مع أفكار يختلط فيها الأمس البعيد بالقريب، بالحاضر والمستقبل...

كانت تعلم أنّ هذا النهار سـوف يقدّم، بدل أن يؤخّر... سـوف يوقظ ذكريات طمسـها رماد الأيّـام، وقضت عليها حرائق الحرب.

***

قالت لابنتها:

- لولاك، لا أحد يستطيع ان يقتلعني من عتبة داري، ويحملني إلى هناك!...

وسألتْها الصبيّة ببرودة:

- ولِـمَ الخوف من هذه الرحلة؟ الطريق سالكة!

وردَّتْ هي بهدوء:

- خوفـي يا صغيرتي، من هذه الحـراب الناهضة بين خلايا الذاكرة...

وشعرتْ تَـوًّا، بأنّها لن تستطيع أن تشرح لابنتها كل شيء، خـلال رحلة اقترحتهـا ابنتها للعمـل... الابنة تُعدّ دراسـةً عن المصانع القديمة، (ومطحنة الماء واحدة منها) فلماذا لا تسـتفيد من خبرة أمّها، ومن علاقتها الطيّبة بالعالم العتيق؟

***

نعم، يا بُـنَـيَّـة، المطحنة لا تزال قائمة في مكانها تمامًا، حول عنق النهر، وحيث يبدأ الانحدار السـريع، وتكرّ المياه مسـتعجلة كي تبلغ غاية رحلتها.

قالت لها:

- أوقفي السيّارة هنا. حيث ترفع الطريق الـمُـمَـهَّـدَةُ شارةَ الاستسلام، وتعالَي نتابع الرحلة سيرًا على الأقدام.

ولم تنتظر من ابنتها جوابًا...

مـذْ وطئت قدمها صفحة التـراب الأحمر الضاحك في وادي الخير، لم تعد تلتفت إلى الوراء، وكادت تنسى ابنتها، وغاية الرحلة...

فجأة عادتْ طفلة، في السادسـة أو السابعة، والبساتين تمتدّ أمامهـا، تُغريها بالثمار العسـليّة، تتدلّى عناقيـد ذهب وياقوت، وخدودًا حمراء أو شاحبة، وثغورًا ضاحكة...

وتصفّق أجنحة الشجر، مثلَ طيور أُسطوريّة، تدعوها، تهمس في أذنها كلمات دافئة، وبين الهمسة والهمسة، يُـخـيَّـلُ إليها أنّها تسمع أصواتًا ترتفع من أعماق الوادي.

أصوات أولاد تائهين، لا قَـيْـدَ يربطهم ولا موعد.

وتكاد تُبصرهم، يَجرون حُفاةً وقد احمرّت أقدامهم الصغيرة من الصقيع، ورشحت من مسام بعضها قطرات دم...

لكنّ الغلبة تظلّ للحمرة الطافرة من الوجنات...

***

أولئك كانوا رفاقَ الطفولة.

معهم مَسَحَتْ هذه البســاتين عشرات المرّات، وباتت تعرف المعابر والدهاليز، والزوايا الغامضة، حيث تتشابك أغصان العلّيق، وتلتحم وتتقارب، وكأنّها تعقد مؤتمرًا سرِّيًّا، أو تغرس على ضفّة النهر مؤامرة.

وتعــرف البســاتين والغــدران، ومبيت الطيــور، ومرابض القطعان.

واليوم أعطتها ابنتها هذه السانحة لتختبر الذاكرة.

وها هي تجــري، وكأنّما ألوف الأيدي تدفعها أو تحملها فلا تُحسُّ بوخز الشوك، ونتوء الحصى.

تجري، ولا تلتفت خلفها.

وتُبصر الماضـــي كلَّه، يقفز إلى عينيهـــا، ويُضيءُ لها دروب المستقبل.

وتتلوّى بها الشعاب، وهي لا تبالي. سوف تَـتَّبع خطًّا واحدًا، تعـــرف جيّدًا أنّه ينتهـــي عند كتف المطحنة، حيث تضع شَـــجَرَةُ الجوز نُـقْـطَةَ الوقف الأخيرة.

***

- أعتقد أنّنا ضَللنا السبيل.

صوت ابنتها، يردُّها إلى الحاضر، وتحسّـــه ناشزًا، ولا علاقة تربطـــه بكلّ ما تراه هي وما تحسّـــه... وتشـــعر بالغريزة، أنّها في حاجة إلى الدفاع عن موقفها، عن المكان والزمان، فتردّ:

- أنا واثقة بأنّ المطحنة هناك، خلف ذلك البُستان.

ويضحك صوت الصبيّة:

- تقصدين القول إنّها «كانت» هناك...

- وما كان سوف يبقى...

- سوف تبقى «هذه» نقطة الخلاف بيننا، يا أمّي العزيزة... لن تُقِـرّي بأنّ المكان يمكن أن يتحوَّل، أو يزول أحيانًا.

- ولكنّ المطحنة، والنهر...

- في الذاكرة، وفي أعماق جذورك المتشبّثة بهذه التربة.

- دعيني أسير بضع خطوات فقط!

تتوسّل إلى ابنتها بكلمات فقدتِ الثقة والتوكيد.

وتنتبــه فجأة، إلى أنّ معالــم الطريق الترابيّــة التي اختارتها، بدأت تتلاشى، ثمّ لم تعد الطريق طريقًا، بل تداخلت أطرافها في حدود البساتين المتعانقة، المتكاتفة، وكأنّها أشقّاء عائلة متلاحمة، موحّدة الرأي.

***

تلفَّتَتْ تبحث عن قِمَّة شجرة الجوز، تأخذها علامة، أو إشارة التبليغ. وأذهلها أن تُبصر عشــراتِ الأشــجار، منتشرة في زوايا البساتين، وعند المفترقات.

ولم تُبصر بينها شــجرة واحــدة، منحنية علــى مطحنة ماء، تحضنها بحنان.

***

مطأطأةَ الرأس، ســارتْ إلى جانب الصبيّــة، في طريق العودة، تُجــرِّرُ قدمَيها، وتتعثّر بخيبتها... ولذلك لم تنتبه إلى حجرٍ نفرتْ حروفُه، من تحت الردم، واعترضت خطواتها.

نَدتْ عنها صرخة مخنوقة، وكادت تهوي لو لم تسندها ذراع الصبيّة...

وفي تلك اللحظة، لمعت الحقيقة في عينَيها مثل تشظٍّي البرق.

تعثّرت بحجر الرحى.

إنّها تقف فوق أطلال المطحنة.

مطحنتها القديمة الغالية، مدفونة هنا، تحت طبقات كثيفة من ردم النهر، وجرف السنين....

نحنُ بخَير...

مكتبة
t.me/soramnqraa

الآن، يمكنني أن أكتب إليك.

أُخبِّئ رأسي في هذا الجحر الصغير، وأكتب.

أوصدتُ الأبواب، وسددتُ الثقوب، ولم تَبْــقَ هناك فتحة واحدة تُســرب هواء الكون، وتقذف معه دخــانَ الحرائق، ورعدَ القذائف، وصريرَ أسنان الكواسر.

وأكتب، يا صديقة، لأقول لَكِ: نحن بِـ «خَير».

وأتوقَّف عند الكلمة الأخيرة، أتســاءل: أتراها لا تزال تحمل المعنى القديم؟ «الخير» القديم.

لا تقاطعيني... دعيني أكمل، وأُفجِّر صمتًا عُمْرُهُ الزمان.

***

وأتجاوز صمتًا آخر أغرقني فيه صوتك العابر إليّ... «من أين؟»

- أكلّمك من «بيروت الشــرقية». عبرنا خــطّ النار، ووصلنا بالسلامة... لم نحمل معنا سوى «هويّاتنا» ومفتاح البيت.

واختنق صوتك في امتداد الحرف الأخير.

أعرف... أعرف، لا تطيلي الشـــرح. لا تقولـــي صمتًا يطوِّق الكلمات. لا تصفي شـــعورك وخلجات الفـــؤاد. لا تفتحي أقنية الدموع... اتركيني أتابع:

***

كان الأسبوع الثالث من الحرب. وبدأت رسائل الدمار تنهمر على حَيِّكم الجميل، المطلّ على الامتداد الجنوبي من بحر بيروت.

وكانت تلك المخابرة التليفونية آخر ما سمعته منكم وعنكم، بعدما تقطَّعت الاسلاك، وسُـــدَّتِ المعابر. وصارت السماء تمطر النار والدمار. ولم يَـبْـــقَ لي أيّ ســـبيل للاطمئنان عنكم ســـوى نشرات الأخبار... ما لا تورده نشرات الأخبار.

كنـــتُ أتحيَّـــن فرصة صمـــت المدافع، لأخرج إلى الشـــرفة الجنوبية وأُسرِّح نظري صوب ذلك الأفق المختنق بسواد الدخان، ويرتدّ النظر منكسرًا، وتتمتم شفتاي الابتهالات.

هذا كلُّ ما بقي لنا، نحن المقيمين هنا، في هذا القلب النابض المعذّب من الكون. هذا كلّ ما بقي: الابتهال والصلاة.

وكان البيت اختيارًا مزدوجًا بينك وبين زوجك.

أَخْبَرتِني بذلك حين التقينا أوَّل مرة، أتذكرين؟

مضى على ذلك اللقاء ربع قرن. وكنَّا طالبتين في جامعة بيروت الاميركية، لَفَتَني اليكِ نضج في الفكر، وحماسة نارية لمعرفة كل شيء... وذلك الخاتم الذهبيّ في بنصر يدك اليسرى:

- متزوّجة، نعم. ولي ثلاثة أولاد، كلّهم على مقاعد الدراسة.

قلتِ لي ذلك بفخر وتابعتِ:

- الحياة مدرسة مشرَّعة الأبواب... أليَس كذلك؟

لم يكن عندي ما أضيفه، فتابعت الاصغاء إليك:

- زوجي مهندس، وأنا مدرِّسة، وأسعى إلى مزيد من التحصيل الجامعي. هدفي نيل شهادة «دكتوراه». متى يتمّ ذلك؟ لا أدري. المهمّ أنّي على الطريق.

وأكملتِ على تلك الطريق مسيرتك، وحصلت على الدرجة المبتغاة، وتخرّجت مع كبير أولادك.

كان حدثًا هامًّا كتبتْ عنه الصحف. وصرتِ رمزًا لطموح المرأة الجديدة في مجتمعنا... الطموح الذي لا يعرف حدودًا.

***

وكان زوجك يبني طموحه هو أيضًا، بالاسمنت والحديد. واخترتما معًا تلك البقعة الهادئة من ضاحية العاصمة:

- تعرفين ميلي إلى الهدوء. هنا أشـــعر بأنّي جزء من المدينة، ومنفصلة عنها، في آن.

وكان لكما اتّصال دائم بكلّ ما يجري في العاصمة من أحداث ثقافية، وتفصلكما عن صخبها حديقة غَـــنَّاء، مســوّرة بشجيرات الياسمين.

وفي الداخل، حوَّلتِ البيت إلى حلم. وجاوزتِ مناطق الحلم في بعض زواياه.

كم كنتِ فخورة، وأنت تعرّفينني إلى غُـــرَفِهِ وشـــرفاته وكلّ ركن منه. وتلك القاعة الرائعة الحسن والتصميم.. المكتبة.

- هذه واحتي الفكرية...

وقاطعتك أنا:

- وواحة أصدقائك، كذلك.

وفي الواقـــع صارت واحتنا جميعًا. فإنّ ولعك بالســـفر فتح لكِ أقنيـــة على الكثير من حضـــارات العالم. ومن كلّ رحلة كنـــت تعودين بالكتـــب النادرة، والأفـــكار الجديدة. وتعودين لتعرضي علينا أفلامًا مصوَّرة لمشـــاهداتك الأثرية والحضارية، وتروي حكايات شيقة بأسلوبك المميز، فننتقل، في بعض وجداننا، مع نقلاتك ونجد في ذلك تعويضًا لنا من تخلّفنا عن السفر.

***

وحين انفتح خطّ التليفون في تلك المخابرة الأخيرة بيننا، كنتِ - كما عهدتُك دائمًا - قوية، متفائلة وواثقة بنفسك. وأكّدت لي ببساطة:

- لن نغادر البيت، مهما جرى. هناك ملجأ، ومؤونة لعدة أسابيع.

لم أعلّق على كلامك... لم أخبرك، ولو على سبيل الدعابة، بأني تخلَّفت في ذلك النهار، عن اجتماع عقده سكّان بنايتنا، لتنظيم شؤُون الملجأ.

لم أَشأ أن أعلن لكِ جبني، وخوفي المزمن من الملاجئ، الذي تحوّل إلى موقف تشبّثت به، طوال سني الحرب...

كنت أرى كلّ من حولي يهرع إلى الملجأ، وأبقى حيث أنا، مسمَّرة في المكان، متحاشية التفكير في الزمان، مسلِّمةً أمري إلى ميشئة القدر، مؤمنة بالفلسفة الشعبية عن حلول الساعة.

لم أقل لك شيئًا من هذا الكلام. اكتفيت بأن تمنّيت لك السلامة وأقفلت الخطّ. وفي اليوم التالي تعطّلت خطوط التليفون التي تربط حَيَّكم بالعالم...

تعطّلت بسبب عنف القصف، فما عَاد يصلني أيّ خبر منك أو عنك، إلّا ما تورده الإذاعات والصحف، في نشراتها الدورية.

***

في إمكانك، إذًا، أن تتصوّري فرحتي بالمخابرة الأخيرة الآتية مع خلاصكم. ونسيت، من شدّة حماستي، أن أطرح عليك بعضًا من

أســئلة كثيرة أعددتها في لحظات الصمت والتأمّل، والتفكير في الأحبّاء الغائبين عن الســمع والنظر... فقد صدمني انكســارٌ في صوتك الذي ما اعتاد إلّا الشموخ.

هزَّني انسكارك، وتلك الكلمات الدامعة.

لا أذكر أنّكِ بكيتِ مَـرَّة في العلانية. حتّى في أشدّ المواقف حزنًا وألمًا كنت متماســكة، متغلّبة علــى العاطفة بإرادة بنيت بها شخصيّتك، مثلما بنيت عائلةً سعيدةً وبيتًا جميلًا.

لذا لم أُطِقْ سَماع دموعك. قلتُ بما يشبه الوعظ:

- علينا أن نوفّر دموعنا، هذا ليس وقتُ البكاء.

وشــعرتُ كم تبدو الكلمات مبتذلة، فلجــأتُ إلى الصمت، وبقي صوتك يتململ بين أقنية سمعي:

- يجب أن أخبركِ كلَّ شــيء... كلّ شيء... أمّا الآن فأكتفي بالخلاصة:

***

- خرجنا تحــت وابل القنابل. كانت الحرائق تشــتعل في الأبنية المجاورة، في الحدائق والمستودعات، والسماء تمطر قنابل جديدة من أحدث ما ابتكره «العقل الحضاريّ المتطوّر»... فرغت الطرق من البشر والحيوانات. حتّى الكلاب الشاردة هجرت الحيّ، ولم

يَبْـــقَ في المنطقة سوانا. بقيت صامدة مع زوجي ورفيق دربي، أتوكّأ على ساعده ويستند إلى يميني...

قضينا الليالي الطويلة والأيّــام المظلمة، في القبو - الملجأ، نســمع من ذلك العمق المظلم كلّ الاصوات الهادرة، والراعدة، المزمجرة والمتوعّدة، والتــي لا تترك للمرء فرصةَ التفكير في ما عداها. وكنا نظنُّ الملجأ حمى يقينا شــرَّها، إلى أن شنَّ الطيران هجومًــا لا أزال أبحث بين الصفات عن وصف يُلائمه. وصارت القنابل تنهمر علينا من الســماءِ ومن البحر ومن فوق تلال بلادنا الغالية. وشــعرنا بــأنّ الأرض تميد بنا، تلــك الأرض الثابتة في قاع البناية... الأرض التي تقوى على أن تســند عشر طبقات من البناء، صارت تميد بنا، وتموُّجات الرعد التمّـوزي تقترب، وتلطم الجدران والآذان... وتتســاقط، بفعل لطماتها، ألواح الزجاج من كلّ صــوب. وتهوي العمارات الشــاهقة، وترتفع ألســنة النيران الأرضيّة لتُلاقي ما يهبط من نيران السَّـمَاء، وكأَنَّـما المصمّم لتلك الجولة الفريدة من الحرب يأبى إلّا أن تكون لها «قفلة عنيفة»، مثل أيَّــة مسرحية راعبة... فقد ســمعنا انفجارًا رفعنا من مكاننا فوق الأرض، وضرب بنا الجدار ولــمَّا فتحنا أَعيننا، رأينا النار تندلع فوقنا، وتَتَسرَّب ألسنتها إِلَــيْنا، مع كثافة الدُّخان، من خلال ثغرة انفتحــت في جدار الملجأ. ثمّ بدأنا نختنــق، وأدركنا أنّنا هالكان خــلال دقائق، إذا لم نغادر الملجــأ... وفي الخارج كان الفصف

متواصـــلًا، والقنابل تدرز الأرض درزًا وهكـــذا اندفعنا بإرادة لم تكن إرادتنا، وبكلّ ما لدينا من غرائز التشبُّث بالحياة. وخرجنا إلى حيث نجد نسمة هواء لم يلوِّثها الدخان.

في تلك اللحظة الحاســمة كان علينا أن نتّخــذ القرار. ولم نتّخذه، بل قرَّرَتْـــهُ قذيفةٌ هبطت على البناية المجاورة وشــطرتها إلى نصفين.

تَطَلَّعت وجه رفيقي، وقرأت في عينيه كلمات لم يَـقُـلْـهَا، بل ترجمتُها على إيقاع خطواته، وهو يَـــتَّجه إلى السيّارة، ويفتح لي الباب. كان سيقول، لو تكلّم:

- إذا خرجنا الآن، فلن تعتب علينا الدار، ونحن عاجزَان عن إنقاذها.

قلت له، وأنا أستجمع فلول الأمل:

- تنقذها معجزة علويّة.

وأخرستُ شــكوكًا راحت تلسع مســاحة الضمير: لماذا لم تحدث المعجــزة حين طارت مســاكن الجيــران ومعظم أحياء المدينة؟.. وحين قُتل الأطفال والنساء والشبَّان والصبايا، والعجائز والمعاقون والأيتام؟ لماذا؟...

وكانت «لماذا» طول الأبــد ترافقنا حين خرجنا من دار تضمّ أروع لحظات الماضــي، وتضمّ جنى العمر كلِّه. وســلكنا طرقًا متعرِّجة وشــعابًا مُـحَفَّـــرَة، واجتزنا حواجز القــوى المتحاربة،

ونصـــال العيون الغاضبة، وجدران الحقـــد، المرتفعة عند حدود، تشـــطر العاصمة إلى نصفين غير متســـاويين. وحيـــن بلغنا تلك المنطقة المحايدة بينهما، أدركنا أيّ ثمن باهظ دفعنا لإنقاذ رأسينا.

بهذه الخلاصة أكتفي الآن، على أن أخبرك كلّ شـــيء، حين نلتقي...

***

أمّـــا أنا، يا صديقة، فلا أزال قابعة في هذا الجحر المظلم، وأكتب إليـــك من خلف الأبـــواب الموصدة، وحواجـــز الرعب والقلق، والحواجـــز التي تفتح وتغلق بإرادات غيـــر إرادتنا... وبين الفتح والأقفـــال، تمرُّ - أو لا تمرّ - قطرات الماء وحفنات القوت. وقد تتســـرّب، عبر الشـــقوق والثغرات، بعض أخبار تحكي للكون ما يجري هنا، في هذه القبضة النابضة المعذّبة، من الكون.

وأقول لَكِ، يا صديقة، والألم يفتح أقنية جديدة في صدري، أنّ النار التي التهمت مســـاكن حيِّـــكم، تقترب بخطى العمالقة، وتهدِّد المباني الشـــامخة، والمباني المكابـــرة، في هذه الجيوب الداخليـــة من المدينة ونحن نتأَمَّـــلها، ننتظـــر... أو لا ننتظر، بل نراوح في أماكننا، حيث حشـــرتنا الحرب، ودعت شعوب العالم بأسره إلى أن «تتفرَّج» على عذابنا.

إلى أين تصل ألسنة اللهيب؟

لســـت أدري. ولا أعلم ما إذا كانت رســـالتي هذه، المكتوبة على نور شمعة، تموت بموتنا وتقطر دمعاتها حزنًا علينا...

أقول لكِ:

- لســـتُ واثقة بأنّ رسالتي هذه ســـتبلغكِ، ومع ذلك أكتبها لأقول لك: لا تجزعي نحن بخير. والسلام عليكِ...

الحيَاة مَرَّتين

ببســـاطة متناهية، وبكلّ ما احتشد في نفســـي من سذاجة، رفعت سماعة التليفون وأدرت أرقامها.

كان هدفي السؤال عنها بعدما فرَّقتنا الحرب، وطوَّقنا الحصار، وقُطعت علينا أسلاك الاتّصال والوصول.

إنّها قريبتي، وتقيم في شـــقّة فوق ســـطح عمـــارة مُطِلَّة على بحر بيروت... والويلات الحمـــراء كانت تنصبّ من قلب الزرقة الحيادية، وتصيب بخبطها العشـــوائيّ مَـــن تصيب وما تصيب... فتنهار المباني على سكّانها حينًا، وفوق تراكم الذكريات في معظم الأحيان. وتشبّ ألسن اللهب، فتأتي على كلّ من يحاول أن يجد منفذًا، أو مجالًا للخلاص.

***

قريبتي «نجلاء» لم تغادر منزلها، برغم هذه الأسباب الموجبة كلِّها... اكتفت بأن يكون للعمارة ملجأ صغير تتدحرج صَوْبَه كلّما سمعت أزيز الطائرات أو هدير المدافع المنطلق من كلّ جهة وصوب.

- لن أغادر بيتي.

قالتها لتضع حدًّا لإلحاحي، ثمّ تابعت:

- أنا باقية هنا. أُفضِّل الموت تحت ركام داري على التشــرّد في الطرق، أو الانتهاء تحت خيمة التهجير.

وكنــت أعرف تمامًــا، مثلما تعرف هي، أنّها لــن تنتهي إلى التشــرّد، ولها أقارب واصدقاء في الجيوب الداخلية من المدينة، وفي عدّة مناطق من الجبل.

ولكنّها امرأة عنيدة!

أجل. هذا أمر لا نقاش فيه. وبسبب عنادها، وقوّة شخصيّتها، انفصلــت عن زوجهــا، وابتعدت عن ابنها، وبقيت تعزف نشــيد الوحدة والحزن، وترسم لوحات مدهشة.

***

نعم. نجلاء رسّــامة. نقشــت اســمها فوق قلوب الناس، الذين أُعجبوا باكرًا بأعمالها، فأقبلوا على معارضها، ونشروا اسمها فوق رقعــة الوطن. ثمّ حملوه معهم، في ما حملوا، حين ســافروا إلى الاغتراب.

ونجلاء لا تقيم في بيت كسائر البيوت التقليديّة... فالسطح الذي اختارته مشرفًا على البحر والجبال والغيوم، هو واحة استقرارها، وملعب ريشتها المبدعة.

اختارت له من الفرش أبسطه، وسوّرته بحديقة غناء، وأقنعت نفسها بأنّ الإنسان يستطيع أن يجمع الكون كلّه في قبضة يده.

وحاولت، ذات يوم، أن تقنعني بنظريّتها هذه.

كنت أزورها في العشيّة، وجلسنا في ركن من حديقتها البهيجة، نشرب الشاي، ونراقب المدينة تفتح أعينها الواحدة تلو الأخرى، فتشعّ الأنوار مع حلول الظلام.

وجلسنا نصغي إلى الأصداء الصاخبة تتلاشى تدريجًا، وكأنّها تهرب إلى ملجأ ينتظرها بين الأمواج، حيث ترقد حتّى بزوغ الفجر التالي.

وكانت أمام عيني مساحة من روعة الجمال المصنوع: مجموعة لوحات تعدّها نجلاء لمعرض جديد.

لست أدري لماذا حُفرت المشاهد في الذاكرة حفرًا، وكأنّي كنت أحدس، وأخمّن في اللاوعي، بأنّ يدًا جهنميّة تتربّص خلف هذه الطمأنينة، لتكيل لها صفعة لا تُنسى.

وكانت نجلاء، وسط هذا الجمال اللامتناهي والمتّصل بما يحيط به من سكينة المساء، واستكانة الأمواج، وانتشار الأحلام الملوّنة، فوق اللوحات... كانت صامتة، بل خرساء. عيناها

وحدهما كانتا تتحدّثان بلغة يرتقي إليها الإنسان حين يتجرّد من الترابيّات.

أذكر تلك الجلسة، لأنّها كانت الأخيرة، قبل أن يحلّ الزلزال، وتفرّقنا طرق كانت، في الأساس، ممهّدة لجمعنا... وقبل أن تتقطع أسلاك الاتّصال الهوائي.

وها إنّ الحرارة تعود إلى خطّ التليفون، وأحسّه ينبض بين يدي، فكيف لا يغريني ذلك بانتهاز الفرصة.

***

أدارت سبابتي الأرقام الستّة، وانتظرتُ. لحظة سكون يعقبها رنين. إذًا عادت الحرارة إلى خطّ نجلاء، وها صوتها يردّ علي:

- آلو... نعم؟

- الحمدلله على سلامتك يا نجلاء. هذا كل ما أودّ قوله.

- طبعًا، الحمدلله على سلامتي، مرّتين...

أجفلتني لهجتها العصبيّة، وصوتها، وقد ارتفعت نبرته عن عادته... ولمستُ جفافًا لم أعهده في كلامها من قبل! ولم تترك لي الفرصة لأطلق سؤالًا جديدًا، بل عاد إليّ صوتها النحاسي:

- الناس يعيشون مرّة واحدة، أمّا أنا فعشتُ مرّتين.

قلت:

- طبعًا، لم يَبْــقَ إنسان من سكّان هذا الوطن، إلّا ومرّ في خطر، بل شــارف علــى الموت، وباتــت كلّ لحظة من لحظات وجوده، حياة جديدة...

وقاطعتني:

- لكنّ الناس الذين عنهم تتحدّثيــن لم يموتوا ثمّ يقوموا... من الموت!

- ماذا؟!

طرحت سؤَالي عريضًا وعالي النبرة، فقالت:

- الناس الذين عنهم تتحدّثين...

- وأنتِ، ماذا جرى لكِ؟ أسرعي، خبِّريني!

- إذًا، لــم تقرأي الصحف، لم تقابلي إحدى الصديقات ولم تعرفي بنبأ وفاتي.

- ولكنّك...

فلم تدعني أتابع، بل أكملت هي:

- نشرت النبأ أكبر صحف العاصمة: «امرأة تدعى «نجلاء ف.»، في العقد الرابع من العمر، شــقراء الشعر، متوسّطة القد، سقطت بينما كانت تجتاز شارع الحمراء، نتيجة إصابتها بشظية قنبلة».

وأنا، اسمي «نجلاء ف.»، شعري أشقر، قدّي متوسّط وتنطبق عليّ ســائر الصفات التي أطلقتها الصحف على ضحيَّة الشظيّة...

إنّمـــا الذي لم ينطبق هو أنّي لم أســـقط في شـــارع الحمراء، ولا أصابتني شظيّـة او رصاصة، وإنّي أخاطبك من فوق سطح البناية، حيث عدت لأرمّم ما تساقط من نوافذ وأبواب.

- فقط، النوافذ والأبواب؟

- نعم. لوحاتي حملتها إلى الملجأ وســـلمت... عاشت معي الألم وانتظار اللحظة الأخيرة. آنســـتْ وحشتي، غرست الطمأنينة في نفسي، وهبتني الأمل، ليس في الحياة فقط، بل وفي الممات.

كنت، كلّما هدر الرعب في الجوّ، أتأمّلها، وأتصوّرني، فيما لو حلّت الساعة، أتلاشى بين ثناياها وتكون كفني ونعشي.

أيّ حلـــم أزهى من أن أنتقـــل، عبر ذلك الجســـر الرهيب، محمولة فوق أجنحة ملائكتي الصغار الملوَّنين؟

ولكن ما لي أشرد معك عن جوهر الحكاية...

وقاطعتها مداعبة:

- هذا يزيدني شوقًا إلى سماع البقية.

وتابعت:

- لم يفتني النبأ، قرأته في الصحف، وأنا قابعة في غرفة مظلمة تحت الأرض.

قرأت ولم أصدّق، ورحت أتحسّس جسدي، من قمّة الرأس حتّى أخمص القدمين.

لا... الجسم سليم، لم تخترقه أيّة شظيّة، لكنّ النبأ يعود فيقف في عيني عمودًا من نار، ويجرّني من أنفي ويذرّ الرعب في قلبي... فأهرع إلى أقرب جارة في الملجأ وأدفع الصحيفة إلى عينيها:

- اقرأي...

وتقرأ الجارة التي قرَّبتني إليها عزلة الملجأ، ثمّ تبدأ تتفحّصني، وحين تتأكّد من سلامة جسمي، تعيد إليّ الصحيفة وهي تتمتم:

- خطأ في الطباعة... تعرفين أنّها أيّام حرب وفوضى، ولا بدّ من حصول الأخطاء.

فقلت لها بنبرة اجتهدتُ في أن أُبقيها حياديّة:

- إنّه خطأ في... الحياة، يا سيّدتي وليس في الطباعة.

ثمّ فطنت إلى أمر آخر، «تذكرة هويّتي»، أين هي؟ بحثت عنها في حقيبة يدي، ولم أجدها. عاودت البحث من جديد، وضربات قلبي تتسارع.

ربَّما سُرقت منّي، سرقتها «المرأة الشقراء، المتوسّطة القد»!

ثم حصل ما حصل.

الخبر قابض على الجثّة، على الضحيّة، وأنا في الملجأ لا يمكنني أن أنفيَ الخبر أو أُصدِّقه!

وقالت الجارة، وكأنّها تحاول حسم الموضوع:

- دعينا نخرج من هذا الجحر بسلام، ويبقى لكلّ حادث حديث.

***

وخرجنا بعدما كاد الزلزال يأتي على كلّ حجر يسند جدارًا. وبعدما دمّر في نفوسنا الطمأنينة وانتزع منها الفرح وسرق الأحلام.

خرجنا بعدما خرســت المدافع، ورحنا نبحث بين الركام عن بقايا الماضي، ونتلمّس رموش أعيننا وهي ترتفع لتعانق الشمس، وتسألها أين طالت غيبتها؟

وكنت فرحة بخروجي ســالمة، فلم أعد أفكّــر بالقلق الذي انتباني في الملجأ.

***

وصبــاح أمس، خطر لــي أن أقوم بمغامرة غيــر عادية، فاجتزتُ الشــارع، وقصدت الســوق القريــب، لأبتاع بعــض الحاجات الضروريّة، وما كدت أطأ عتبة المخزن، حتّى طالعتني وجوه ألفتُها في المكان، وقفــزتِ العيون تتهجّأني. وتعــدّت إحداهن مرحلة التهجئة إلى اللفظ الصريح:

- أنت نجلاء ف... اليس كذلك؟

قلت:

- كذلك، سيدتي. هل تأمريني بشيء؟

وتعثرتِ الكلمات التالية فوق شفتيها:

- ظننتكِ...

- تُـوُفِّيت، أليَس كذلك؟ عفوًا اذا كنت خيَّبت ظنَّكِ، سيدتي.

لا أدري لماذا خرجت العبارات ساخرة من بين شفتي.

لـــم أكن أقصـــد إهانة تلك الســـيّدة، ولكـــنّ الأعين التي تحلّقت حولـــي وراحت تحفر، كالأبر، فـــي وجودي، أثارت غيظـــي، وأهاجت نزعة التحدّي في كيانـــي... ولا أعلم كيف شـــعرت بأنّ وجودي، في تلك اللحظة وأمام أولئك الأغراب، كان لونًـــا من التحدّي لهم جميعًا، بـــل كان صدمة وخيبة غير متوقَّعتَين.

ولمّا اقتلعتُ نفســـي من بين ســـهام النظرات، شـــعرت بأنّي خرجت عن صوابي، وفقدت الاتّـــزان والرصانة، وفكّرت في أنّ الحقَّ كلَّه على الحرب وعلى عزلة الملجأ التي أنستني كيف يكون التصرّف اللائق مع الآخرين...

***

«ولكنّها مسألة حياة او موت!» سمعت الصوت الداخلي يعترض، ثمّ يضيف: «أنتِ كنتِ في موقف الدفاع عن النفس»...

- يعني؟...

- يعني أنـــتِ حاولتِ أن تعودي لإِثبـــات حياتك في وجود الآخرين.

- أي الذين شطبوا اسمي عن القائمة.

- نعم. وظهورك اليوم أخلَّ بالمعادلة.

- لكنّهم غرباء، أولئك الناس لا يهمّهم أمر حياتي أو موتي.

- وماذا تعرفين عن المشـــاعر المقيمة خلف ستائر الضباب؟ ثمّ لا تنسَي أنّك فنانة لها شهرتها، أي لها الأصدقاء والأعداء.

- وهذا لا يزيد أو ينقص ذرَّة ممّا أنا فيه.

- ربما يصحّ هذا الكلام بالنسبة إليك. ولا علاقة له بحسابات الآخرين.

والمشـــهد نفســـه تكرّر عدّة مرّات في الشـــارع، في لقاءات المصادفة، في صالون الحلاق.

وكانت العيون تقول الكلام نفسه... تبثّ الخيبة ذاتها... وترفع حـــرارة التحدّي في صـــدري، فأنهض من كلّ نقلـــة قدم، وكأنّما أجراس الغد المجهول تقرع لي نغمًا متميّزًا أفهم منه سؤالًا واحدًا:

- إلى متى تبقين جاهلة؟

لقد أُهديتِ الحياةَ مرّتين.

العمَّةُ لطيفة

كان الهدف من عودتي إلى القرية حضور جنازة «العمّة لطيفة»، لذا قرّرت أن أختصر إقامتي ما أمكنني، خصوصًا وأنّ أواصر الصداقة كانت قد انقطعت بين عائلتَينا منذ سنوات، ولم يَبْــقَ هناك أيّ رابط بيننا سوى الاِسم، وما رَسَــب في ذاكرة الأقارب والجيران والمهتمّين بشؤُون الناس، من حلو الكلام ومُـرِّه.

لكنّ حسابنا الفردي قَــلَّما يتّــفق مع حساب المجتمع، أو يطابق حســابات الآخرين الذين ينتظرون حضورنــا، مرورنا في شارع أو وقوفنا عند منعطف، «ليتكمّشوا» بنا، ويعيدوا وصل حوار انقطع قبل سنوات.

***

وهذا بالضبط ما حدث لي، لدى وصولي إلى «الجورة».

استقبلني الأولاد الصغار، العفاريت، الذين لا يزالون يركضون حفاة، منذ أن رحلتُ عن تلك الديار قبل ربع قرن.

التفُّوا حول السيّارة وهم يردِّدُون لازمة واحدة:

- ماتت عمّتك لطيفة، ماتت عمّتك لطيفة...

تجاوزت قاماتهم الصغيرة، إلى الصفّ الآخر، حيث انتشر الرجال من كلّ الأعمار، في باحة تصل بين دارتنا المتواضعة وسائر مساكن الحيّ.

وهؤلاء كانت لهجتهم تختلف، وراح كلامهم غير المفهوم يهدر حولي مثل بشائر الرعد:

- العَوَض بسلامتك... العَوَض... بس...

تجاوزتُ الخطَّ الثاني، ورحتُ أتوغّل في المسير بين صفوف النساء المرصوصة رصًّا محكمًا، حيث يصبح نَقْلُ القَدَم رابعَ المستحيلات.

وهنا، خلع التعبير كلّ القناعات الخفرة، وانطلقتْ ولولة واضحة، مثل عويل العواصف الكانونيّة في أعماق الوادي:

- شو قلتِ بموت العمّة لطيفة؟

ثمّ انحرف الكلام، فلم يَعُدْ موجَّهًا إليّ، بل إلى الجثمان المسجّى فوق السرير الحديديّ:

- قومي شوفي مين إجا...

ثمّ عاد الأوّل يلتقي الصوت الآخر في مناجاة ثنائيّة محرجة؛ وكان عليَّ أن أقرِّر في تلك اللحظة، موقعي أنا من كلّ ما يجري.

هل أتجاوب وأُطلق للعاطفة العنان، فتنهمر الدموع سخيّة، تشفي غلّة العيون المتحلّقة حولي؟.. أم أتجمّد، وتنطلق الوشوشات والتساؤلات المشكّكة بصدق عاطفتي؟

ثمّ شعرت بأنّي أعجز من أن أتّخذ قرارًا بتلك الدقّة والسرعة، لذا استلقيت فوق كرسيّ أفرغته إحداهنّ، كُرْمى لعينَي الضيفة القادمة من بيروت. وصادف أن كان الكرسيّ محاذيًا رأس العمّة، ومقابلًا وجهها الذي لم تتغيّر تعابيره، برغم الهزال الشديد الذي أصاب صاحبته، وتركها قفّة عظام ملفوفة بوشاح من جلد.

***

لبثتُ هناك، لا أُبدي حركة او أتلفّظ بكلمة. وانعكس جمودي على الجماعة، فران الصمت دقائق معدودة انطلقتْ بعدها عبارة من إحداهنّ:

- ردّة جديدة يا «سَيُّود». ردّة من مقام الستّ لطيفة...

وبدأت سيّود ترنِّم أناشيدها الحزينة، والمبريَّة بفعل الزمن:

- شيلوني وحطّوني قليلي... لباب الدار تاشمّ النسيمي.

وتبعتها الجوقة بأصوات فاترة. وأنا رأسي منكّس وشفتاي مطبقتان، وعيناي متحجّرتان... أذناي وحدهما كانتا مفتوحتين، تستوعبان ما تردّده الشفاه، ويرتفع في الجوّ حتّى يصل إلى السقف، فلا يخترقه بل يعود ويلتفّ حول الوجه الشمعيّ الناحل،

وأحسّ بأنّ العمّة لطيفة، برغم كلّ ما أصابها من وَهَن، تكاد تقوم لتحتجّ على كلام تقليديّ، لا يليق بموت خرجتْ فيه هي على كلّ التقاليد المألوفة.

***

ومأساة العمّة لطيفة بدأت مع نشوب «حرب أهليّة» في «الجورة»، انقسم خلالها الناس إلى فريقَين، بل إلى حزبَين متناحرَين بدأ كلّ حزب منهما يستقطب جماعة ينتصر بها على الحزب الآخر.

ولم تشذّ عائلة واحدة عن ذلك المسلك. وبالطبع التزمتِ العمّة وعائلتها أحد الحزبين، وصادف أنّه كان الأقوى، فخاض ضدّ الحزب المناوئ حربًا طاحنة، دفعت فِتيانه إلى الفرار من وجه مقاتليه إلى أقاصي المعمور. ولم يتخلّف منهم في القرية سوى العجائز والأطفال والنساء. وهؤلاء باتوا خاضعين للسلطة المنتصرة. وعاشت العمّة لطيفة أيّامًا سعيدة. ولم تحاول مرّة أن تُخفي شعورها، أو تبدي تواضعها، بل كانت تتصرّف عكس ذلك تمامًا، فما تكاد إحدى نساء الحزب الآخر تمرّ بقرب دارها، حتّى ترفع لها يدها بإشارة النصر. وإذا صادف أن التفتت المرأة الأخرى، فلِكَي تبتلع الإهانة وتمضي. وَهَبِ المرأة المارّة لم تلتفت، كان يكفي العمّة أن تسجّل العيون المراقبة هذا التحدّي السافر، والذي كان يثلج صدرها، ويطلق ضحكة مجلجلة من أعماق كيانها.

وإذا خطر لإحـــدى الصديقات الحكيمات أن تعاتبها وتطلب منها أن تكفَّ عن هذا التحدّي الصبيانيّ، كان جواب العمّة لطيفة واحدًا لا يتغيّر:

- نحن ضحّينا ويحقّ لنا النصر، واللي مش عاجبو، يبلّط البحر.

***

ولم يذهـــب الآخرون إلى البحـــر ليبلّطوه، بـــل راحوا يجمعون الشمل، ويدرسون، في الســـرّ، خططًا حديثة يمكن أن تصل بهم إلى الغاية المنشودة فيعودوا إلى القرية، ليتغلّبوا على الحزب الذي انتصر عليهم، ويستعيدوا مجدًا فقدوه، ويرفعوا رؤوسًا انحنت، في أثناء غيابهم، بانكسار.

وقد أســـهمت في هذا المخطّط العناصـــر الباقية في القرية، العجائز النســـاء والأطفال، وكلّ فئة على طريقتها. فكانوا، ظاهرًا، يُبدون للمنتصرين الخضوع والانكسار، حتّى أنّهم علّموا أطفالهم كيف يتقبّلون تحدّيات الأطفال الآخرين فلا يقاتلونهم، حتّى ولو بلغت التحدّيات أقصى حدود الإهانة.

وحفظت الأمّهات الوعد السرّيّ في قلوبهنّ، فلم يَـــبُحْنَ بِه لنســـمة عابرة، وهذا ما جعل الواحدة منهـــنّ تعيش أيّامها الصعبة بصبر، على أمل أن يأتي الفَـرَج.

***

مــن الجهــة المقابلة، ارتاح الحــزب المنتصر إلى مــا حقَّق من فتوحات، ونام على الأمجاد، مكتفيًا بإطلاق الشــعارات، والكتابة على الجدران، ورفع اليافطات في الشوارع، وكلّها يشير إلى عظمة رئيس الحزب، وحســن قيادته، وانتصاره الباهر على أعدائه بينما تغمز من قناة الحزب المنافس.

وتعلّم الأطفال أناشيد راحوا يطلقونها في الأَزِقَّة، ليقهروا بها الأطفال الآخرين.

واكتشفت جماعة منهم أنّ رفع السبابة والوسطى على شكل الرقم (7) تعني إشــارة النصر، فأُعجبت بهذا الاكتشاف، وصارت ترفع الشعارات بمناسبة وبلا مناسبة...

وهكذا تبنّت العمّة لطيفة تلك الشارة، بل حوَّلَــتْها إلى عنوان التحدّي والغلبة المطلقة، وتجاوزت بها كلّ نساء حزبها. كما مضت فــي التعصّب إلى حدوده القصوى، وهذا ما رفع جدار الفرقة بينها وبيــن الآخرين، وأخذت حلقة الناس من حولهــا تتقلّص، إلى أن وَعَت ذات يوم، فوجدتْ نفسها وحيدة معزولة في غرفتها، مُـبْـعَـدَة عن المقرَّبين... حتّى زوجها وأولادها، رفضوا أن يمضوا معها إلى حدٍ أرادَته فاصلًا بينها وبين من لا يوافق، سلفًا، على كلّ ما تؤمن به.

وهكذا بدأت تنسى العدوّ الحقيقيّ، فنقلت المعركة إلى باب بيتها، وبات كلّ من يخالفها الرأي، مشــبوهًا في نظرها. وهذا ما دفع ابنها البكر إلى الوقوف في وجهها وقفة شرسة ويصرخ:

- ألا ترين أنّك تجاوزت كلّ حدّ؟

فانبرتْ له، مستنفرة كلّ مدّخرات التحدِّي:

- أنت رجل؟ إبقَ رجلًا وابعد من طريقي.

وذُهــل الفتى لهذا الجواب، وفكر فــي أنّ أمّه أُصيبتْ بمسٍّ من جنون.

***

وكان في تفكيره على حقّ!

فهناك لــونٌ من جنون العظمة يُصيب بعــض الناس، ويعمي عيونهم عــن رؤية الواقع، كمــا يصمُّ آذانهم عن ســماع حقيقة الأصــوات الهامســة، أو الصارخة حولهم، فيمضــون في الحياة والعمــل، وكأنّ العالم فــارغٌ إلّا من وجودهــم. وكأنّما كلّ من عليها تافه، ما عدا شــخصيّاتهم الكريمــة... ثمّ، فجأة، يهدر عند الأفق صــوتٌ غريب، وتزمجر العاصفة من كلّ صوب، وتطوِّقهم السواعد... تُـطَـوِّقهم السواعد.

***

وأبصرت العمّة لطيفة تلك السواعد، حين نهضت هلعة، قبل بزوغ الفجر...

أبصرتْ أشجارًا تتحرّك عند مطلّ الضيعة!

قالت:

- إنّي لم أخرج من الحلم. الشـــجر ليس بشرًا، وإذًا، فإنّه من المستحيل أن ينتقل من مكان إلى مكان.

ولكـــن نظرها لا يخدعها، روح «زرقاء اليمامة» تنســـكب في روحها وتؤكّد لها:

- أجل، إنّ الشجر يمشي، عند مطلّ الضيعة.

***

اقتربت من فراش زوجها وهزّته:

- قم، يا رجّال! قم انظر، هل ترى ما أراه عند الأفق؟

لم يكن هناك نورٌ يهـــدي! لا قمر ولا نجوم... الكون هادئ يحبس أنفاسه، ويستعدّ ليطلق صرخة النور الأولى، ويفتح الباب لعبور ملكة الدفء والضوء.

فرك الرجل عينيه، وتثاءَب وهمّ بأن يقول لزوجته: «عودي إلى فراشك، إنّك تعيشين في عالم الهواجس والكوابيس»...

همّ بأن يقول لها هذا وأكثر منه، لو لم يســـمعِ الطلقة الأولى تخضّ السكينة، ثمّ أعقبتها ثانية، فثالثة.

قال لزوجته والرعب يقفز من عينيه:

- لقد عادوا!... فاجأُونا.. أين بندقيّتي؟...

هرعت إلى القبو، تبحث له عن البندقيّة المعَـــطَّلة... البندقيّة الخرساء منذ أيّام الحرب المنسيّة.

وظلَّ «الشـــجر» يتابع مســـيرته ويتقدّم، حتّـــى أصبح محاذيًا المساكن، وتوغّل في الشعاب الضيّقة، وراح يرسل هزّات الرعب في النفوس المستسلمة للنعاس.

أطلَّت العمة لطيفة من «قَمَرِية» تشـــرف على جميع المداخل المؤدّيـــة إلى القريـــة، فأبصرت الطرق تتحوّل إلـــى أقنية وأنهار، تفيض بما تحمل وتدفع دفقها السخي باتّجاه دارها.

عادت إلى زوجها تهزّه بعنف:

- لماذا لا تطلق النار؟ البندقيّة بين يديك! لماذا؟...

لم يردّ الرجل. بقي جامدًا في مكانه، والبندقيّة مطروحة فوق ركبتيه.. البندقيّة الخرساء منذ بداية الحرب الأولى.

***

ومثلما يصحو المرء من غيبوبـــة طويلة، صَحَتِ العمَّة لطيفة، في أقلّ من رفَّة عيـــن، وأبصرتِ الحقيقة تتكـــوَّم أمامها، على فوهة بندقيّة صدئة. وسمعت وقع أقدام تدقّ على الجدران والسقوف، وتقتـــرب من باب المنزل، وتقترب من حزامٍ أمنيّ، حاكتْه حولها، مثلما تحوك الشرنقة سجن عزلتها.

ومثلما تفعل الشرنقة، فعلتِ العمّة لطيفة:

راحــت تتوغَّلُ في أعماق ذاتها، وتــردّ خلفها الأبواب... ثمّ بدأت تهبط الســلّم المؤدّي إلى أبعد زاوية من زوايا القبو، حيث بقيت أيَّامًا لا تتحرّك، ولا تذوق الطعام والشــراب، حتّى تحوّلتْ إلى قفّة عظام، يلفّها هذا الوشاح الجلديّ المُـجَـعَّد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرِّهَان

كان صغير إخوته.

لا. بل الأصغر بين فتيان القرية.

منذ ولادتــه... منذ تلك اللحظة الفريدة، حين أطلقت أُمّــه صرخة مُــدَوِّية، وأعطت الحياة، حياة جديدة، تمكَّنت «الداية» أُمّ منصور من أن تتكهَّن بحجم الولد.

رفعته بين يديها بعدما غســلت جســمه الهشّ، وفركته جيّدًا بالملح والريحان.

حملته مقمَّطًا بالثياب الجديدة، وقرَّبته من أَنف أُمه، وهي تردِّد:

- شَوفتي فيه صغير، يا سلمى. يمكن ما ولد على يدي طفل بهذا الحجم، منذ أن بدأت أمارس المهنة، أي منذ أربعين سنة.

ابتسمت الأمّ النفساء، بسمة مسلوخة من أحشاء متألِّمة وقالت:

- لا بأس، يا أمّ منصور، المهمّ وُلِـد بالسلامة... «خلقة كاملة، نعمة زايدة».

- صحيح... صحيح.

ردَّدت أُمّ منصور ثمّ أَردفت:

- الحمد لله... العين مليانة. عساه يعيش بدلالكم.

***

كان أبوه ينتظر في غرفة مجـــاورة، ففتحت «الداية» الباب ونقلت إليه البشارة:

- صبيّ... صبيّ، الله يسلِّمه، ويعيش مع إخوته حياة هانئة.

قفز الأب عن الكرسيّ منشرحًا، واقترب من أمّ منصور ودسّ في كفّها قطعة من العملة، مدَّخرة لهذه الغاية.

دسّها وهو يتمتم:

- الله يعافيك.

ثمّ تجاوزها وانسلّ إلى حيث ترقد زوجته، وأغلق الباب خلفه.

***

انصرفت أمّ منصور، تجرجر قدمَيها وثقلَ جسمها وأفكارها.

كانت، حين تساعد في توليد نساء القرية، تنسى الحدث حالما تتخطَّى العتبة، وتعود تغرق في مشاغل عائلتها.

هي واســطة عبور الأطفال إلى هذا العالم. لا ســاهمت في تكوينهم، ولا في حملهم.

تمدّ يدها، تساعدهم ليعبروا الجسر الصعب، ثمَ تتناول الطفل، تقدمّه للحيـــاة الجديدة، بعد أن تتمّ واجباتها التقليدية، والموروثة عن جدَّة جدَّتها.

لكنّها اليوم، وبعدما تجاوزت العتبة والباب الخارجي، ظلَّت تسمع صرخات الطفل الجديد.

ومع أنّ بيتها يقع على مسافة كبيرة من بيت «أجْـــوَد الباني» فإنّ ذلك المخلوق الصغير، والذي وُلد مع بزوغ الفجر، تمكّن من أن يخترق المسافة بصوته، ويلاحقها... بل يقضّ عليها مضجعها، ويجعلها تتقلَّبُ من جانب إلى آخر، في محاولة العودة إلى نفسها وأجواء بيتها.

لكن عبثًا.

كانت تبحث عن تفسير يريح بالها:

- لماذا وضعت سلمى طفلًا بهذا الحجم المصغَّر، وهي فارعة القوام كنخلة، وزوجها لا ينقصه الطـــول ولا العرض، وأولادهما الأربعة يدرجون على سلالم النموّ، وهم يضجُّون بالعافية والمرح؟... لماذا يولد هذا الطفل الخامس صغيرًا بحجم «المقتاية»؟؟

وصلت إلى هذا الحدّ من التساؤُل وابتسمت.

لقد أَحسَّـــتْ أنّ التشـــبيه بات عتيقًا منذ أن غزت بذور القثاء الأجنبـــيّ بســـاتين القرية، وصـــارت «المقتاية» تصـــل إلى خصر «الزلمة».

ومع ذلك، لا يزال المثل حيًّا، بل ومُتَـدَاوَلًا.

قالت لنفسها:

- وهـل أنا من تغير الأقوال المأثـورة وتبدلها؟.. أنا هيهات ألحق شغلي...

***

ثمّ عاد الصغير يتربَّع ملء عينيها، ويتشبَّث بخيالها، شكلًا وصوتًا، بـل أبصرته يتحوّل فجأة، من كتلـة اللحم التي حملتها بين يديها مع الفجر، إلى مخلوق يجري ويلعب، وينافس الأولاد في ساحة القرية، ثم سـمعتْ صوتـه يعلو على أصـوات الآخرين، وقامته القصيرة ترتفع، فوق القامات جميعًا.

قالت لنفسها الشاردة الموزعة، المحرومة لذَّة النوم:

- لا بد من أنّ الخالق، سبحانه وتعالى، يُريد أن يبلغنا رسالةً عبر مخلوقه الجديد.

هـذه المعادلة أراحـت «الداية» وجَعَلتها تعود إلى فراشـها، لتغرق في نوم عميق.

ولم تحاول أُمّ منصور، في الأيّام التي تلت، أن تحدِّث بالذي أبصرتـه. لم تنقل حرفًا مـن ملاحظاتها إلى أسـماع الجيران أو الأقارب. وذلك انسجامًا مع أخلاقيَّة المهنة.

لكن خبرًا كهذا لا يبقى سـرًّا، بل يتفشّـى مثل بقعة الزيت، وتشربه الأسماع بشغف.

ثمّ يبدأ الخبر يتنقّل فوق الشفاه وعلى رُؤوس الألسن الحادَّة كالحراب. وفي تنقُّله، يحمل في أطـراف الجناحين الزوائد، من ملح الكلام وبهاره.

ولا يظلُّ الطفل طفلًا.. بل لا يعود يخصّ عائلة بالذات. فهو ملك المجتمع، حامل همّه، ومتلقّي خير أفعاله وشرّها.

***

والطفل الآتي من المجهول، لم يحمل معه، إلى والديه ومجتمعه، سوى الخير.

وحمل معه مقدارًا من الفرح وخفّة الظل، فإذا حضوره يغرس البسـمات في كلّ زاوية من زوايا البيـت، ممَّا دفع والده إلى أن يؤكد أمام سـمع أعيان القرية وبصرهم بـأنّ: «الدنيا مش بالكبر والصغر. المهمّ الأفعال... هالولـد حجمه صغير، صحيح، لكن فعله أكبر منه».

***

وكان فعله قد بدأ يظهر في منافسـة إخوتـه، والتغلّب عليهم في شؤون كثيرة، عدا تلك التي تخصّ الجسد.

فقد تعلّم، ومنذ أن درج فوق الأرض، كيف يعوِّض من ذلك النقـــص، ويتفوّق في الدهاء والذكاء، وابتكار الأســـاليب التي لا تخطر للآخرين في بال.

وكان حجمه الصغير، يســـاعده علـــى القيام بأعمال كثيرة، لا يتوصَّـــل إِلَيها الكبار. ويمكّنه من الدخول في معابر لا يجرؤ على اختراقها ذوُو الأحجام الضخمة.

وكلَّما أَمعـــن في تلك الممارســـات والتمارين، ازدادت ثقته بمواهبه وطاقاته، وبات يبصر نفســـه عملاقًا، والآخرين حولَـــه، تماثيل، بل أصنامًا يحرِّكها بفعل دماغه المتفوِّق.

***

ولم يسع أساتذته، إِلّا أن يعترفوا بتفـــوُّقه، مُـنذُ أن دخل الصفّ الأوّل. بـــل إن بعضهـــم لاحظ الفرق الكبير بينـــه وبين رفاقه من الفتيـــان والفتيات. وباتوا يخشـــون أن يتسـبَّب بقـــاؤُه في تلك المدرسة البسيطة، بالإِخلال في توازنها، وضرب معادلاتها... لذا اســـتدعى المديرُ والدَه، ذات يوم، وبحث معه في الأَمر. ونصحه بأن يجد معهدًا في العاصمة، يتَّســـع لاحتواء هذا الولد الموهوب فوق العادة.

والأَب لم يفهم قصد المدير. وكلّ ما اســـتطاع إدراكه هو أن المدرســـة تضيق بابنه، على صغر حجمه... هذا إلى جانب عجزه

الواضـــح عن تحمّل تكاليف التعليم في المعاهد الكبرى. لذا قال للمدير بلهجة تقرب من الرجاء:

- أبقه عندك، ودَبِّـره كيفما تيسّر.. ليست لي القدرة على دفع نفقات التعليم في المدينة. له بسوية إخوته.

قال المدير:

بقــاؤُه هنا مضيعة لوقته. حرام. علينــا أن نفكِّر في أمره، فقد يكــون بذرة عبقــري، وواجبنا يدعونا إلى وضـــع المصباح فوق المنارة، لا أن ندفن نوره تحت المكيال.

***

لكنّ الكلام بقي كلامًا.

وانتهى الفصل، بنهاية الحوار. واســتمرَّ كلُّ شيء على حاله. وظلَّ صغير عائلته، يرافق إخوته إلى المدرسة المتواضعة، فيتخانق مع المعلِّمين مرَّة ومع الرفاق مرَّات. وحين لا تكون هناك معركة، يرتمي في أحضان الضجر.

أمَّا صراعه وعراكه مع رفاقه فكان له سبب واحد: التحدّي... لرفاقه الطُّلاب، صغارًا وكبارًا، لأساتذته، للجيران، للعيون التي تنظر إليه بدهشة وللبسمات التي ترتسم فوق الشفاه كلَّما لاح طيفه...

التَّحدِّي للعالم الكبير من حوله، والذي لم يُفَصَّـــل على قده وقياســـه، وأَلزمه هو أن يمدِّد قامته وفكره وحواســـه جميعًا، كي يتمكَّن من ملامسة أطراف ذلك العالم.

وقد ازداد ضغط التحدّي مع بلوغه عامه الثاني عشـــر، حتّى بات رفيق اللحظات، ينهض معه، يأكل من صحنه، ويشـــرب من كأسه، ويرافق خطواته كيفما توجّهت.

وقادته الخطى، ذات يوم، ناحية صخرة «الشـــير» المشرفة من عُلُـوِّها الشاهق على القرية، وكأنّها محطة رصد لسلوك الناس فيها.

لم يقصدها عفوًا، بل ردًّا على تحدِّي الرفاق:

- «ليسون» يعجز عن بلوغ القِـمَّة.

بل إنه انطلق ليردَّ على تحدّي زعيم «العصابة»، فريد الأسمر، الذي تقدَّم منه، نافخًا صدره، منتشـــيًا بطوله الفارغ، ومشرفًا عليه من ذلك العلو:

- عصفور الدوري لا يتجاوز محيط عشّـــه، والتحليق العالي خلق للصقور، ونسور الجوّ.

فانبرى له «ليسون» ببسالة:

- الأصل الفعل، لا القول...

ازدادت نشـــوة «الريِّس» فريد فاقترب منه، وراح يلهث أنفاسه في وجهه:

- علينا بالتجربة... التجربة أكبر برهان.

وصفَّقت الجوقة للريس:

- علينا بالتجربة.

***

ومثلما اقتيد، ذلك المعلّم قبل ألفين من السنين، إلى الجبل العالي ليُجَرَّب، هكذا اقتادت كلمات رئيس «العصابة» خُـطَى ليسـون، برغم احتجاج إخوته ومحاولاتهم اليائسة لإقناعه بعدم الاستجابة للتحـدِّي، ومواجهة التجربة... وليتـرك كلام فريد يكرج من بين شفتيه، ويتلاشى مع ذرَّات الأثير.

لكن ليسون لا يُـعَـانَد:

- أرفض الخضوع، حياتي كلُّها، كانت تحدِّيًا متواصلًا... وها أنا ثابت، ولن أتراجع.

أعلن ذلك بشجاعة وتأكيد، خصوصًا وإنّ المتحدِّي ليس ولدًا عاديًّا، بل هو الريِّس فريد، زعيم العصابة الأُولى في القرية.

***

وبقي ليسون عند كلامه.

وها هو يقطع المسافة قفزًا، والرفاق يجدُّون في إثره، متعجِّبين كيف وُلدت هذه الخفَّة في خطاه.

إنه يسير قفزًا.

بل يطير، متجاهلًا اللغط، والسخرية، ولا يتوقّف، إلّا بعد أن يبلغ ذروة الشير، ويتسلَّق أعلى صخوره، ويقف فوق القِـمَّة...

ومن ذلك العلو الشاهق يتأمّل الرفاق، يزحفون إليه.

المتقدِّمون منهم، بلغوا حدود الشـير، والآخرون، يجرجرون خُطاهم في طريق الصعود.

***

وفريد وصل قبل سـائر الرفاق. وشعر بأنّ ليسون يكاد يسرق منه الأضواء، وينتصر عليه، وهذا لن يكون... ولن يحدث...

مثل البرق، تشـظَّت الحقيقة في عينيه، فانبرى ليواجه الواقع الجديد، ووقف، كالخطيب المنتصر، يوجه كلامه للرفاق:

- أَيّهـا الإخوة. لقد انتصر ليسـون في الشـوط الأَوَّل. في الحقيقة، لم يحسـب أحد منَّا أنّه يتمكَّن من كسب جولة السباق الأُولى. لكنّ الشرط لم يَـنْـتَـهِ بعد.

***

فُوجئ الرِّفاق بهذا التصريح. وتلاشـت نشـوة الظفـر من عينَي ليسون، والتفت إلى الريِّس يسأَله:

- وماذا بقي أمامنا؟ شرطنا كان بلوغي القِـمّة، وقد نجحت... فماذا بعد؟

ابتسم فريد مُـؤَكِّـدًا:

- طبعًا نجحت.

ثـم التفت إلـى الرفاق، وهو يغمـز بعينيه، ويـوزِّع عليهم بسمات الخبث:

- هل بينكم من يُنكر أنّ ليسـون نجح، وكسـب الشـوط الأَوَّل؟

وارتفعت الصرخات:

- لا... لا أحد ينكر ذلك.. كلُّنا يعترف بهذا الانتصار.

ولم يسمح فريد للفوضى بأن تنتشر في صفوف محازبيه، بل التقطها ببراعة وهو يعلن:

- هناك الشرط الأخير والأهمّ. سوف نرى ما إذا كان ليسون قادرًا على تحقيقه، فننتخبه رئيسًا علينا جميعًا.

كلام مفاجئ، أذهل ليسون، ورفع حرارة الحماسة في صدره، ولم ينتبه إلى الشرك الذي طرحه الريِّس فريد مع كلماته اللطيفة. لذا طلب منه، وبكثير من الطيبة، أن يتقدّم بالشرط.

قال فريد:

- أبصرنـاك كيف بلغت القِـمَّة، وبرهنت أَنَّـك لسـت عصفورًا دوريًّا، بل نسـرًا من نسـور الأعالي. وإِذًا، نطلب من «النسـر» أن يقفز من فوق القِـمَّة، إلى المدى الذي يسمح به طول جناحيه.

صمت ليسون لحظة، وكأنّه لم يستوعب كلام فريد. لكن أخاه الأكبـــر، راجي، أدرك الخبث المبطَّن بالكلام المعســـول، فصرخ بأعلى صوته:

- ليسون إيَّـاك... لا تخضع للشرط. هذا لم يعد رهانًا بل هو عدوان... هل تسمعني؟ فريد ينصب لك شركًا خطيرًا، إنتبه.

واعترض فريد:

- بل هذا هو الرهان الأصيل وعلى ليسون وحده أن يقرِّر... هل تســـمعني، ليسون؟... وحدك أنت تقرِّر، فلا تصْغِ إلى الكلام التقليدي والنصائح التافهة.

وردَّدَت الجوقة:

- ليسون... وحدك قـــرِّر. إمْضِ في الرهان... أَرِنَـــا كيف تطير النسور.

***

وقف ليســـون يتأمّل جمهور الرفاق ويســـمع هدير الهتافات، يأتيه كموج البحر. وشـــعر بقوَّة غريبة تسري في عروقه تنفخها ثمّ تصعد إلى رأســـه، وتتمدَّد تحت جلده، نافذة إلى كلّ مغرز إبرة فيـــه. وإذا بالكون يزوغ، فلا يعود هـــو يبصر تفاصيل ما حوله، بل يحسّ، بأَنّ جناحين ينبتان فجأةً على أطراف أنامله، ثمّ يحملانه ليطير.

من فوق قمّة الصخر، يطيــر، ويحلّق في الجوّ، قَبل أَن يحطّ على الأرض.

قبل أن يرتطم بصخور السفح.

كان الرفاق يطلّون عليه من فوق الشــير، ولا ينبسون بحرف. انتظروا أن يتحرّك، أن يصرخ، ينادي، يطلب الغوث.

لكنّ شيئًا من هذا لم يحدث.

***

قال احدهم:

- أعرفه... ليسون يفضّل الموت على الصراخ.

وقال آخر:

- لــم أصدّق أنّه يمضي في الرهــان... لم أفكّر في أنّ الأمر تعدّى المزاح وصار حقيقة.

وردّ الريّس فريد:

- إنّه بطل حقيقيّ. اليوم، تحقّقنا جميعًا أنّ الشجاعة لا تُقاس بحجم المرء، صغيرًا كان أم كبيرًا.

ولم يُسمع أيّ تعليق من الرفاق، على كلامه الأخير.

انسحبوا من حوله، وراحوا يهبطون طريق الانحدار.

***

وفي مكان آخر، عند السفح، كان الولد ليسون، يستفيق من هول الصدمة، ويتلفّت حوله، فلا يبصر أحدًا، لا الرفاق، ولا زعيمهم.

رحلوا...

رحلوا كلَّهم، وتركوه يلملم أشلاء قدِّه الصغير، ويمسح دمًا يسيل من الجبين..

وظلّ ينهض، ويرتفع، لا فوق جناحين وهمِيَّيْن، بل على ساعدَي إرادة جبَّارة صمدت للرهان وتحدَّت الموت، وانتصرت...

الفجر

أتســاءَل، وكتْفي مسنودة إلى حرف ســلّم يكاد ينهار... أتساءَل: إذا عادت أُنثى الطير إلى عشٍّ بنته من نور العينين وجمعت قشَّــة وخيوطه، بمنقار يرشح حبًّا وحنانًا...

إذا عادت إلى هذا العشّ ولم تجده، ماذا يحدث؟

أو: إذا وجدته أشــلاء مبعثرة، ومُــوَزَّعة على امتداد الطرق والساحات، فوق الخرب والمباني المنهارة، كلّ قشَّــة، كلّ نسلة خيط منه مزروعة في مكان... ماذا تفعل هذه العصفورة الولهى؟

أوَلا تهبط، حاملة خيبتها وأحزانها الحديثة والقديمة... تهبط من فضاء انطلاقها، وتروح تــمرّغ الجناح فوق المكان، ثمّ تقفز، تجمع النثار، تحاول أن تضمَّ القشَّــة إلى القشَّة، وتغرس الابتهال والقبل بين الخيط والخيط؟...

وإذا صــادف أن انهار المكان، أَوَلا تحــاول أَن تحمل بقايا العشّ، منزل الحنين والذكريات، وترفعه فوق غصن جديد؟

***

تمرّ في بالي التساؤُلات، وكتفي مسنودة إلى حرف ناحل، من سلّم يكاد ينهار، لولا شجرة شرسة، شقّت سبيلها وسط ركام الانهيارات، ونهضت، ثمَّ جمعت حولها شُجيرات من بنات جنسها، وتحوَّل الجميع إلى غابة استوائية، في المكان الذي كان حتّى الأمس، متنزَّهنا الجميل.

وغابة الأدغال هذه، تمدّ سواعدها، تدعم درجات السلّم، وتمدّني بالثقة، وأعرف أنّي لو بقيت مُتَّكئَة هنا إلى الأبد، فلن تنهار الأدراج. إنّ جذور الشجر تطوّقها وتحميها في غياب السقف والجدران.

***

وأَنا هنا، أنتظرك، منذ متى؟

لِنَنْسَ عدد السنين. ما تعوَّدنا أن نرسم الأرقام على صفحة العمر الذي لنا.

أنا هُنا، أنتظرك، منذ حبّنا.

بالحبّ أرَّخنا، وبكلماته محونا الزمن.

قلتَ: «إنتظريني. لن أتأخّر». ووافقتك: أنتظرك مع كلّ اللحظات الآتية.

وفي لحظات انتظاري الجديد، أسرِّح النظر، عبر ثغرات مفتوحة، بين الدرجة والدرجة. وأُبصر البحر الأزرق البهي، بحر

بيروت الصابر الحنون، يشرف علينا، ويأتينا راضيًا، مهما اختلفت زوايا الحوار معه.

***

هذه أوّل مرّة ننتظر فيها سَـنَتَنَا الجديـدة، والعيدَ الآتي بالوعود، ننتظرهما عند أقدام سلّم منهار.

وكنّـا، في ذلك الزمان المُـشِّـع في مرايا الذاكرة، نلتقي هنا، في مِـهْـرَجَان الحياة. والحياة في بيروت، كانت مهرجانًا دائمًا، تتحرّك فيـه اللحظات، مثل حوريات البحر، بـكلّ الغنج والتيه، وكأَنها الوحيدة، بين أزمنة التاريخ، التي لها ذلك الدلال.

يخطر فـي بالي الآن، أن أطارد واحـدة من تلك اللحظات، إلى مقرّها الحالي، حيث تبيت مع أخَوَات لها، وأُطالبها بالعودة، بإِرجاع ما أخذت منّـا. برفع جدران المكان وسقفه، ومسح الغبار عن درجات السلّم.

وأطالبهـا بأن تعيد نثر المحتفلين فـي أرجاء القاعة، وتعطي إشـارة إلـى العازفين فتنطلق الموسـيقى من النوافـذ والأبواب المُشَـرَّعة، وتمتزج برذاذ الموج، بصَخَب الموج، وتطفو الأسماك إلى سطح الماء. ثم تتحوَّل إلى حوريَّـات يرقصن، ويرقصن إلى أن تهرم الموسيقى.

***

وأُطــارد واحــدةً من تلك اللَّحظــات، إلى حيث تخبِّئُ رأْســها، وتخفيه تحت رمال تغزو شــوارع بيروت، تذرِّيها رياح الصَّحاري الغاضبــة... وأقول لتلك اللحظة اخرجي مــن مخبأك، من عزلة جفَّفت الحياة في عروقنا، وأعيدي إلينا مقعدنا فوق الشرفة، حيث نسامر البحر في العشايا والليالي وفي يقظات الفجر الضاحك.

أخرجي وأعيدي الأصدقــاء والمفاجآت... أعيدي كلّ الذين رحلوا، وتفرَّقوا، وفرشــوا وجوههم فــوق دروب الغربة، ومدُّوا جلودهم وسع امتداد الكرة الأرضيّة...

وأقول لها: أنت جبانة، وُلِدْتِ في زمن الجبن والتخلِّي، وفي عهد فقدان الخيال والذاكرة، لذلك هربتِ، وأخفيت رأسك تحت الرمال، أو أغمدته، مثل سكين، في قلب البحر...

وبحــر بيروت، يعرف كيف يُخفي الأســرار، وكيف يســمع وشوشات العشّــاق والمحبِّين، ويحتضنها، مثلما تحضن الأرض بذار الخصب، لتنجبه في الأزمنة المستحيلة.

***

ليلة لقائنا الأول،

وكان العالم يستقبل سنته الجديدة،

دعوتنــي لنضيــع، مــع المحتفليــن، في صخــب الرقص الجماعي...

قلتُ:

أَجهل رقص المدن.

ابتسمتْ عيناك:

- أيّتها البدوية الرائعة، ألن تحطِّي الرحال؟

وأجبتُ:

- بلى. أستريح في واحة عينيك.

وتابعت نصائحك:

- الحيـــاة تمـــرُّ غير حافلـــة بوجودنا، ما لم نشـــترك في كلّ إيقاعاتها. والرقص أجملها.

ثمّ شدَّتني يدُك القويّـة إلى القاعة، ووجدتنِـي أرقص بفرح:

- إنّه أسهل مِـمَّا ظننت!

- ما هو؟

- الرقص.

- العاصفـــة تبدو أعنف حين نكون فـــي برج المراقبة، ولدى المواجهة تتلاشى، وتزول.

وتنبّهت:

- إنّنا نرقص، والعاصفة بعيدة... هي خارج الجدران على الأقلّ.

***

وكانـــت هناك. عاصفـــة عنيفة، تهزّ أركان البحـــر القريب. تهدر، تزمجر، وتلطم قاعدة المبنى. ووقفنا نتأملها ونبتسم.

بدت لنا، وهي تداعب الأمواج، وكأنّها ترافق إيقاع الموسيقى.

وقلتَ أنت:

- إنه انسجام مثاليّ، بين الداخل والخارج.

وكان انسجامًا مشابهًا ينمو في اعماقنا، ويدفعنا الواحد باتجاه الآخر، لنشبك أيدِيَـنَـا، ونسير، واثقِـين بأن دربنا هو درب الأمان والسعادة...

ونسينا ما تغرسه العاصفة في اعماق البحر.

وحين انغلق الباب خلفنا ونحن نودّع القاعة، ونخطو خطوتنا الأولى، نحو السنة الجديدة، أوقفتني في عرض الشارع لتقول:

- اسمعي، وسجّلي. إنّها لحظات البدء...

كانت أصداء الموسيـقـى، تختلط بصخب الساهرين، تأتينا من كلِّ صَوب، وتمتـــزج بأصداء أُخرى، تجري في تشـــعُّبات الطرق، والـــدروب الضيّقة. وترتقي الأصوات جميعًا، تتلاحق ثمّ ترتفع في مسيرة تصاعدية إلى حيث تتلاشى في فضاء، يفتح لها الصدر مرحّبًا.

***

- إسمعي، وسجّلي، إنها لحظات البدء...

وتكرَّرت «المواعيد البدايات».

وكنّا نحمل، إلى مكان اللقاء، مفاجآتنا، وحفنات فرح، نغرسها عند عتبة المكان، أغمار الجني من موسم سنوات انطوت.

وفي ذروة انهماكنا، لم نتوقَّف مرَّة لنتأمّل البذور وغلّاتها.

كنَّا نحملها، مثلما يحمل المؤمن حفنات مع غلّات موسمه، ويرميها عند أقدام المعبد.

***

تمرُّ في بالي - وكتفي مسـنودة، إلى بقايَا سلّم عتيق - السنوات الماضية، الوجوه الماضية، أمواج البحر، صفَّارات البواخر، زمامير السيارات وأصداء الموسيقى.

وكتفي مسـنودة إلى حافة سـلّم، تكاد درجاته تتفكَّك، لولا شجرة عنيدة شرسة، ترسل جذورها في أعماق التربة، وتطلّ، عبر أوراق خضراء تُـؤَكِّد لنا أنّ الأرض، تحت موطئ أقدامنا، لا تزال صلبة قوية...

***

وأنا فـي انتظارك. اتّفقنا على أنّنا، مهمـا حدث، لن نتخلَّف عن اللقاء ولن نؤخِّـرَه، لنخترق المستقبل، فوق سفينة عام جديد... عمر جديد.

***

أعرف أنّ الدروب، لن تسمح لك بقيادة سيارتك: الدروب التي توصل إلى منتزهنا الجميل، المطلّ على البحر لم تعد تبالي بالوصول.

إنّها منشغلة، في زمن الحرب الرديء، باحتضان بقايا المباني المنهارة.

حقًّا، ماذا في وسع الدروب أن تفعل، حين تنهار المباني وتتكدَّس فوق صدرها؟

ماذا تفعل بها؟ هل تصدّها، أم تطرحها في قاع البحر؟

من أحَقُّ من الدروب باحتضان الجدران، والسقوف والذكريات؟ خصوصًا وأنّ السيّارات، باتت عاجزة عن الوصول، والمشاة يَخْشَون رصاص القنص...

***

غريب، كيف لا أبالي بالقنص، بدعة الحروب القذرة، وأنت قادم إليّ من كلّ الدروب، من فوق تلال يختلط فوقها، الخشب بالحديد والزجاج بالتراب. كيف نسيتُ خطرًا أقرب إلينا من رمش العين؟

وحين التقينا، في ذلك الزمان الأوَّل، لم نكن نسمع، سوى الموسيقى، وصدى الأنغام.

وكانت تحيط بنا وجوه مقنَّعــة، وأقنعتها تثير المرح، وتبعث الطمأنينة.. كانت أقنعة العيد، لا أقنعة الحرب.

***

وتمرّ في بالي صور غرستها الذاكرة، من أجل رفقة العمر. وأستند إلى سلّم يكاد ينهار، وأرصد كلّ الدروب، التي منها يطلّ وجهك علــيّ. وألمحك تقفز، وكأنّــك تطير، ولا تطأ قدمــاك الدروب المقفرة.

تأتي من حيث بدأنا، رافعًا رأســك، مشــرقًا ببهائك، فينتعش المكان وما فيــه، وتعود إلينا، كلُّ البذور المغروســة عند العتبة، تتفجَّر مثل نبات الجنّ، حاملــة الزهر والثمر... الوعود والآمال، وكل الأفراح المنسيَّة.

وأكاد أفقد اتِّـزاني، وأضيع في غموض الحدث. فتبتسم أنت لتَجلوَ غمّي:

- إنّه الأمر الطبيعي، والمنتظَر.

وأقول لك:

- أنظر السلَّم يكاد ينهار، لولا هذه الشجرة الشرسة، الراسخة الجذور في صلب الأرض.

فتتأمّلني لحظة، قبل أن تسأل:

- أوَلــم تعرفيها؟ إنها بعض ما بذرنا على عتبة المكان. حفنة صغيرة من غلات الموسم.

- وتقوى على سنده؟!

- بل هي جسر يربط المكان بالبحر، بالزمن الآتي.

- والبناء؟

- اقتربي خطوة... خطوتين.

- ها أنا اقتربت.

- اسندي كتفك إلى كتفي.

- والسلّم؟

- يحنو عليه الشجر.

- وكتفك تُسْنِد انهياري؟

- بل نتكاتف، ثم نسـير. أُنظري هناك. البحر لا يزال يرسل أمواجه، صلة حواره مع الكون، مثلما كان يفعل أيَّـام زمان.

- والفجر ينبثق مفتِّــقًا حجب الظــلام. يطلع على بيروت، وكأنّه أوّل فجر في التاريخ.

- وهو كذلك... فجر عام جديد.

حُلْقوم الذِّئب

كان يأتي من كلّ الجهات. لا ينفع معه سَدُّ الطرق، وإقامة الحواجز، ومَدُّ الاسلاك الشائكة أو الملساء؛ فالقرية الصغيرة، المستكينة على كتف الوادي، لها طريق أساسي، يخترقها من الشرق إلى الغرب، ويشطرها إلى شطرين شبه متساويين.

وبناء على هذه القسمة، سُمِّيَت المساكن الواقعة تحت الطريق «الحارة التحتا» وتلك الواقعة فوق الطريق «الحارة الفوقا».

وهكذا بكلّ بساطة تمّ الترتيب الجغرافي لتلك القرية.

لا أحدَ يذكر كيف ومتى ومن كان صاحب الفكرة. إنّما الطريق، الذي كان واسطة القطع، هو في الوقت نفسه أداة الوصل، لذا لم يكن مستَغَربًا أن يسلكه، حتّى يصل إلى بيوتنا.

ولكن، ولأسباب نجهلها نحن ويعرفها «هو» بالخبرة والحنكة، لم يكن يعتمد الطريق المشروع، بل كان ينفذ إلى القرية من كلّ الشعاب والزواريب والدروب الملولبة بين المساكن أو البساتين، حتّى إذا ما بلغ نقطةً آهلةً، فاجأ السكّان، بشرًا كانوا أو حيوانات،

وأرسل في عروق كلّ حيّ رِعْدَةَ الخوف، فتنطلق الصيحات مثل الموج يعلو صفحة بحر هائج، صيحة تستنفر الأخرى أو تطاردها، وفوق الفقاقيع، وغشاء الزبد، يطفر اسمه بأحرف نافرة: «الذئب».

لا أعلم، لأيّ سبب لم نكن، نحن الصغار، نخاف الذئب حينذاك: فالذي كان يحصل لنا أغرب من ان يُصَدَّق، وأصعب من أن يُسَمَّى:

كنّا نهرع مع الكبار إلى الساحة، ثمّ نقف نتأمَّلهم يحملون العصيَّ، والبنادق القديمة، و«الفرّاعات»، أو أيَّة وسيلة من وسائل الفتك والقتل، ونحن نقف، ونتأمّل بكثير من الإعجاب والدهشة، وقلوبنا الصغيرة تنتفض، من شدّة الحماسة لا الخوف... فقد كان هجوم الذئب، ينفخ روحًا جديدة، لا في صدورنا وحدنا، بل وفي كلّ ذرَّة من ذرَّات الحياة في القرية.

وإذا الأجواء كلّها تنقلب رأسًا على عقب، فينسى العدوُّ عدوّه. وتخرج النساء الأنيقات إلى الساحة العامة، مشعَّثاتِ الشعر، غير آبهات لمظهرهنّ! وينسى الأب قسوة ابنه الضالّ فيقترب منه ويغمره بذراعيه، وهو يمطره بالقبل، ويعيش الناس، كلُّ الناس، تحت الخيمة الطارئة وكأنّهم وُلِدُوا من جديد، بل في تلك اللحظة، ومن رحم المحبّة والتسامح.

***

لـــم تكن الإنارة الكهربائيـــة قد بلغت قريتنا بعد، فكان الســـكّان يتوسَّـــلون، في بحثهم عـــن الذئب، فوانيس قديمـــة تعتمد وقودًا فتبدو لنا، وســـط الظلمـــة الحالكة، مثل أعين خبيثـــة! فنورها لا يتجاوز دائـــرةً بحجم الرغيف، ومع ذلك هي مُرشَّـــحة لأن تُنير طرقًا ومســـالك تتعقَّب الذئب فوق التـــلال والهضاب، أو تطارده في خوافي الأودية.

لكنّها كانت الواســـطة الوحيـــدة التي تشـــفي الغليل، وتفكّ الحُـكلة وكنَّا نحبّها لا رغبة في مساعدة الجماعة، بل لأنّها تحوِّل الســـاحة الجامدة، في ليلة الذئب تلك، إلى مسرح أسطوري يَعِدُ بكل المفاجآت.

***

تسألني: ما كان دورنا في تلك الليلة؟ وما الذي كان يجعلنا نخرج، نغادر الفراش الدافئ ونخرج إلى حيث تحفر العاصفة اسمها فوق الوجوه؟ ونقف في مواجهة رياح شـــماليّة، تعنّف الاشـــجار، أو تحاول أن تُخضع الغابات؟...

والآن أقول لك: لست أدري. ولا أستطيع أن أجد سببًا منطقيًّا واحدًا أخطّ تحته سطرًا بالقلم الأحمر.

لكنّ الأمر كان طبيعيًّا في حينه، فمشـــاركتنا في كلّ ما يتعلَّق بالناس والأحداث، كانت عفوية، ولم يصدَّها أيّ اعتراض.

وكانت تلك المشاركة تأخذ أحجامًا مُتَـــنوِّعة كلّما ازدادت غرابة الحدث أو تضخّمت أبعاده.

***

وليلة الذئب لم تكن، طبعًا، من الليالي العادية، فالمعروف أنّ الذئاب في تلك الأيـام الشتائيَّة الجافية، كانت تقصد الرعاة، تغافل الراعي، وتتمسّك بخناق نعجة شاردة، او عنزة دفعها الطموح إلى تسلّق قمة «الشِّير»، والراعي الغارق في الضباب والضجر، قلَّما تنبّه في الوقت المناسب، حتّى إذا ما سمع نُباح الكلب، هبّ يصرخ وينادي، وربما بُحَّ صوته، وتشقّقت حنجرته، قبل أن يبلغ محطّة تستجيب.

وهكذا، في هلعه، لا يجد أمامه ســوى حل واحد: أن يسوق القطيع ويعود إلى القرية، مُطأطأ الرأس، يشكو ظلم الغريم الغدّار.

***

لكنّ اجتراء الذئــب على مهاجمة القرية كان أمــرًا مختلفا، فهنا ليست الفلاة، أي مســاحة صولات الذئب وجولاته ثم إنّ القرية لها حصنها المنيع وسورها الرفيع وإن لم يكن ظاهرًا للعين، فهو مسكوبٌ من وحدة السكّان، وتضامنهم ووقوفهم في مواجهة كلّ من يخترق الحدود أو يسير عكس المجرى، أو يخطو فوق أرض مَسيَّجة برموش العيون.

لــذا فاختراق الذئب دروب القرية، في تلــك الليلة الكانونية الحالكة الظلام، العنيفة العواصف، كان يعتبر حدثًا لا يُسْــكَتُ عنــه، بل يســتنفر الطاقات الواعيــة، والقائمة فــي أعمق أعماق اللاوعي.

وهكذا خرج الجميع، الصغار والكبار، الشــيوخ والشــبّان، النساء والرُضَّع! ووقفوا وسط الظلمة، كلّ يحمل في يده فانوسًا، ويصبّ عينيه في عينَي جاره وشفتاه ترتعشان بالسؤال:

والآن، ماذا؟

***

تقدّم أحد الرعاة ووقف وسط الساحة وقال:

- علينــا أن نطارد «الوقش»... إذا لم يرتدع هذه المرّة، يأخذ كَسْـرَة ولا يعود يرتدّ.

صفّق الشباب من شدّة الحماسة وثــنَّت لهم أيدينا الصغيرة، وهتفت الحناجر:

- عظيم.. اقتراح عظيم.

وارتفع صوت ضعيف، كاد يضلّ طريقه إلى مســامعنا وسط عويل العواصف:

- السؤال: كيف؟ ومتى؟

فقال آخر:

- سؤال وجيه؛ لا يجوز أن تخرج إلى العدوّ قبل أن تُعد العدّة.

وثالث:

- بالصواب نطقت... إذا لم نُظهر قوّتنا من أوّل الطريق، فسوف يرافقنا الفشل في المحاولات التالية.

وردّ آخر:

- هذا تشاؤمٌ سابق أوانه.

وقال سواه:

- ولكن، علينا أن نحسب كلّ الحسابات. فنحن أمام عدوّ نجهله وهو عدوٌّ غير عادي.

وارتفع صوت جديد:

- أنتم تضخّمون حجم الوقش.

قاطعه آخر:

- هذا أمر ضروري، حتّى نُقوِّي عدّتنا.

تابع الصوت الجديد حواره:

- وهذا يهدّ المعنويات. ليست أوّل مرّة يغزونا فيها ذئب، وبرغم ذلك صمدنا.

تدخّلت امرأة:

- أنتم تضيّعون الوقت في الجدل. أخبرنا ماذا في وسعنا أن نفعل؟

فنشز صوت ساخر:

- اذهبي إلى فراشك.

وصفعته المرأة بلسان جريء:

- واحد مثلك يذهب إلى فراشه.

فارتفع صوت وقور:

- السمع يا أخوان، كدنا ننسى الموضوع الأساسي، الذي من أجله التقينا. كلّ واحد منكم على حق. لكنّ القضيّة الأولى لهذه الليلة، هي أن نُخرج الذئب من قريتنا.

وما كاد المتكلّم يبلغ هذا الحد، حتّى انطلقت صرخة من مؤخرة الساحة، وشوهد شيخ الفلّاحين، «أبو فارس»، يشقّ طريقه بين الجماعة ويصيح:

- الحجلا مفقودة...

***

سقط الخبر على الساحة سقوط الصاعقة. وصعدت من الجماعة شهقة أسف، وتقدّم أبو فارس حتّى صار في مواجهة الاكثرية وصاح:

- الحجلا، الأصيلة، أغلى بقرة في الضيعة، صارت بين أشداق الذئب.

***

و«الحجلا» كانت سارحة طوال النهار، في مرعى تعوَّد بو فارس أن يقودها إليه مع بقية «الطرشات»؛ وقد «سرّب» الجميع، تلك الليلة، ما عداها!

الخبر خلق موجات قلق جديدة، في صفوف الجماعة، فالوضع لم يعد في نطاق النظريّات، بل تعدّاها إلى الفعل، والذئب الذي كانت له الجرأة على اقتحام القرية ماذا يردّه عن المرعى؟

إذًا، ما العمل؟

السؤال يعود في وجه آخر، ويصفع الجميع بين أعينهم، ويستنفر الطاقات، ويشحذ القرائح، ويوقظ الهمم....

ويطوف السؤال، متنقّلًا بين الآذان، وترفّ العيون، وتغمز الفوانيس غمزات لها معانيها، ويُخَيِّم على الجماعة صمت ثقيل، يقطعه هدير العاصفة، وعويل الرياح الصاعدة من أعماق الوادي.

***

وسط هذه الحيرة، تقدّمت حنَّة باقتراح تنفس الجمهور على أثره نفس ارتياح.

قالت حنّة:

- علينا أن نربط حلقوم «الذئب».

وصفّقنا لها...

أذكر أنّ أيدينا الصغيـرة تحرّكتْ من تلقائها، وراحت تصفّق بحماسة، جعلتها تبدو كأجنحة رفٍّ من العصافير.

صفّقنا ونحن لا نُدرك معنى كلام حنّة. لكنّنا شممنا فيه رائحة خلاص ما، وخاتمةً للصمت المخيّم على الجماعة، والشلل الذي ضرب أدمغة الحاضرين.

«نربط حلقوم الذئب»!

***

- أين صالح؟

السـؤَال يفتح طريقه حتّى الصفّ الأخيـر، فيجرّ صالح من طرف عباءته، ثمّ يوقفه أمام الأعين الشاخصة.

- أحضر حلقوم «الذيب».

لم تكن أمامه فرصة ليرفض أو يتساءل. الجماعة تطلب وعليه أن يُلبِّـي الطلب... منذ عشرات السنين، والحلقوم إرث عائلته، يعبر من جيل إلى جيل.

الحلقوم؟

فكّان من جمجمة ذئب عتيق، أو هكذا يُقال، يحفظهما صالح في علبـة خاصّة يخبّئها فـي درج الخزانة، مثلمـا يُحْفَظ الكنز، ويخرجهما مَـرَّتَين أو ثـلاث مرّات كلّ عام في أوقات الشـدّة

والضيق، حيــن لا يعود البحث عن الضائع يؤْتــي ثماره. وكلّما شردت بقرة أو نعجة أو كرّاز...

في البدء، تُجْــرى محاولات للبحث عن المفقود، حتّى إذا ما حلّ الظلام، قبل أن يهتدوا إليه... عادوا، بكثير من الاستسلام والثقــة، ليطرقــوا بــاب صالح ويطلبــوا منه أن «يربــط حلقوم الذيــب»... أي أن يُخرجَ الفكّيــن المتآكلين مــن المخبأ ويتلو كلمــات حفظها بالوراثة، ثم يلفّ حول الفكّين شــريطًا أو خيط قنّب، وينصرف كلّ واحد إلى بيته، مرتاح البال، مُوقِنًا بأن «حلقوم الذئب» الشــارد في الفلوات ســيبقى مربوطًا طوال الليل، مثلما ربــط صالح فكّي جدّ جدّه الأول... حتّــى إذا ما طلع الصباح، وعُثــر على الحيوان الضالّ في أحــد الحقول، هرع أصحابه إلى بيت صالح وطلبوا إليه أن يفكّ الحلقوم، ليتمكّن الذئب من تبلُّغ لقمة عيشه الحلال.

***

بــكلّ الاحترام والجلال، الذي يحفظــه الأبناء للأجداد، وميراث الأيّام الماضيــة، تقدَّم صالح أمام الحضور، حاملًا فوق كفَّيْــه «حلقوم الذئب»، وقد تدلّــتْ من طرف خنصره شــريطة فقدت لونها، ثمّ أغمض عينيه بخشوع وهو يتلو كلمات إيمانه؛ حتّى إذا ما انتهى أحكم لفَّ الشريط حول الفكّين بطريقة طقسيَّة، حفظها

جيّدًا، ووضعهما بين يدي بو فارس ثمّ استدار على عقبه واتّجه نحو داره...

وتبعه ثانٍ وثالث، وكلّ واحد يهمهم كلمات غير مفهومة ثم يتنحنح أو يخرج من وسط الجماعة.

ولمّا لاحظتْ حنّة أنّنا بقينا، نحن الشهود الصغار، جامدين في مطارحنا، اقتربت تكشّنا مثلما تعوّدت أن تكشّ الدجاج أو العصافير.

- يا الله.. كلّ واحد إلى بيته، ربطنا حلقوم «الوقش» وخلصنا.

***

ردَّتْنا كلمات حنة إلى واقعنا، وهجم علينا التعب والبرد والنعاس دفعةً واحدة. ولم نجد لنا مهربًا آخر نلجأ إليه، فعدنا إلى بيوتنا، يرافقنا غموضٌ وحيرة، خصوصًا وأنَ أسئلتنا حول غزوات الذئب لم تجد من يُجيب عنها...

كنّا نحبّ أن نعرف ماذا حلّ بالذئب، الذي غزا القرية، تلك الليلة... وهل هو نفسه الذي خشي بو فارس سطوته، وخطره على الحجلاء؟

وأسئلة كثيرة، كانت تقفز إلى أطراف الشفاه ثمّ ترتدّ، إذ لا نجد الفرصة السانحة لطرحها.

حتّى أهلنا، كانوا يُحجمون عن الردّ على أسئلتنا، لعلمهم بأنّ ذلك، لن يزيد واقع الأمور أو ينقص من هذا الواقع...

فالذئب الذي غزا القرية تلك الليلة، وفي الليالي السابقة واللاحقة، لم يسلك إليها الطريق الأساسي الذي يشطرها إلى شطرين شبه متساويين؛ بل كان يسلك بعض الشعاب الملتوية والآتية من كلّ جهة تهبّ منها الريح، وهذا ما جعل رصد الطرق، دون غزواته، من الأمور الصعبة بل المستحيلة.

***

وهذا بالضبط ما دفع فارس إلى أن يسهرَ طوال الليل وهو يفكّر، ثم يخرج قبل طلوع الفجر، وبلا علم والده... يخرج إلى الحقول حاملًا حلقوم الذئب في مخلاة تتدلّى من كتفه اليسرى وفوق الكتف اليمنى «بارودته المعدّلة»، الموروثة عن جدّه، وذات التاريخ الحافل بإخضاع كلّ مخلب وناب...

***

لم تكن الحجلاء، ما يشغل فكر فارس في تلك الهنيهات الصباحية البكر، فقد كان عقله منهمكًا بعمليّة حسابية مهمَّة اعتمدها في تخطيط اللحظات التالية، والتي ستقرّر مصيره، بل مصير قريته وسكّانها.

ظلّ يسير ثابت الخطى، وأصداء الليلة البارحة تهدر في أذنيه، تختلط فيها أصوات الناس (سكّان القرية صغارًا وكبارًا) بهدير

الرعد، وزمجرة العواصف وهذه الأصوات جميعها، ظلّت تقوى وتتصاعــد، حاملة معها، صرخات الضعفــاء المظلومين، ضحايا عدوان الذئاب، جيلًا بعد جيل.

بَقيَّةُ الكلام

أتذكَّـرُ، كمن يستعيد واقعَ حلمٍ لم يكن حلمًا.

كنت هناك، أنا، وجمهور من الناس: وجوه أعرفها، ووجوه لم تمرَّ في عدسة الذاكرة.

وكنّا نسير في حقل شاسع، لا ينبت فيه شجر ولا زرع. مساحة مسـطَّحة من أرض ممهَّدة، قاحلة؛ وفي نهاية الحقل، ارتفع عمود من نار. وكنَّا جميعا نَـتَّجه صوب ذلك العمود. نهمس الكلام همسًا، لا يرفع أحد صوته. حتّى الأطفال خَرسوا، وسارُوا مع القطيع.

***

كان بين الجماعة رجل عجوز، يكشف عن صلعته، ويحمل عصا سنديان، يتوكَّـأُ عليها ويسير خببًا، تسبقه عيناه إلى هدف ثابت لا تحيدان عنه.

فكرتُ:

- هذا الرجل أعرفه.

فالتفت إليَّ، وكأنّه سمع همس أفكاري.

- نعم، ومنذ زمن بعيد.

- هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضّلي...

قالتها نظراته.

الرجل لا ينطــق، يتحدَّث بالنظرات ويجعلــك تفهمه بعمق ووضوح، وتشعر بأنّك، أنت أيضًا، تودُّ لو تخلع الكلام من فوق لسانك، وتختم به على شفتيك.

- سؤَالي بسيط جدًّا: هل تخبرني إلى أين نذهب؟

أومأَتْ عيناه. وفهمت أنّه يشير إلى عمود النار.

قلت:

- ألا خوف علينا من الاحتراق؟

أدار وجهه عني، وعاد يُثبّت نظراته على الهدف البعيد.

***

بدأ نوعٌ غريب من الخوف يغزو صدري. وشــعرتُ برعدةٍ تنتشر في عروقي:

- إلى من أتوجَّه بالسؤال؟ هذا الرجل الأكبر بين الجماعة، إنه الأشمل وعيًا، وها هو ينبذني ولا يردّ عليّ.

انتشلتني من خوفي عينا طفل: كان وجهه العذب يواجهني تمامًا، وهو مسنود فوق كتف أمّه، وهي تسير منحنية قليلًا إلى الأمام.

وأُمّه صبية، نحيلة، طويلة القامة، وذات شعر كستنائي يرفّ فوق الكتفين على إيقاع خطاها.

سألت الطفل:

- إلى أين نحن ماضون؟

ابتسمت عيناه العسليّتان، وانطلق لسانُه مزغردًا:

- إنكيغ. أبا.. بابا.. أب...

- تقصد أن تقول؟

- ماما.. بابا.. كيغ...

وقفل الحوار ببسمة استحياء. ثمّ غرز أنفه في الكتف الحنونة...

***

عدت أستأنف المسير الصامت والحوار الداخليّ، وفجأة انطلقتْ صرخةٌ أجفلتني، لكنّها لم تستطع أن تخترق خطّ المسيرة.

تلفَّتُّ أبحث عن مصدر الصراخ، فأبصرت امرأة ممدَّدة فوق التراب، وكأنّها تستريح على متن غمامة.

- حان موعد ولادتها...

قال أحدهم.

فردّ عليه صوتٌ آخر:

- تحتاج إلى من يساعدها.

فأجابه ثالث:

يمكنها أن تتدبَّر أمرها، لا وقت لدينا للانتظار.

وقطعت الحوار صرخةٌ أقوى، انطلقت من أعمق أعماق المرأة، ثم أبصرتُها تتكوّم على ذاتها، وكأنَّها تحاول أن تحضن الألم وتدجِّنه ليصبح في حجم قبضة يدها.

حاولتُ أن أقترب منها، فامتدَّتْ يدٌ عملاقة من مكان غير مرئيّ، معلَّق بين الأرض والفضاء، وردَّتني.

رفعت نظري بحثًا عن صاحب اليد، فرأيتها تتراجع، وتذوب تدريجيًّا، لتصبح في شفافية الهواء.

- ولكنّها...

- لا بأس تابعي سيرك.

وأَخرسَ الصوتُ بقيَّةَ احتجاجي.

***

تقدّمْتُ خطوتين، يرافقني وخز ضميري، ثم تلفَّتُّ إلى الوراء، فإذا المرأة تتحوَّل إلى نقطة زائغة عند الأفق.

فكرت: إنّنا لم نبتعد هذه المسافة، فأنا ما سرت إلّا خطوتين، ومع ذلك، أصبحت الحامل نقطة منسيَّة عند الأفق. حاولتُ أن

ألفت أقرب السائرين بجانبي إلى هذه الحقيقة، فإذا بالموكب قد تجاوزني، وبات على مسافة منّي، يكاد لا يحدُّها النظر.

***

إرتعشتْ أحشائي:

- والآن ماذا في وسعي أن أفعل؟

أطلقتُ صيحة تَردَّدَتْ أصداؤُها في كلّ اتّجاه، ثمّ عادت إليّ:

- ماذا... ماذا... ما... ذا؟...

- لا، هذا مستحيل!...

وعاد الصدى من جديد:

- مستحيل.. حيل... ييل!...

- عليَّ أن أركض. أُسابق الريح، كي أُعوِّض.

هذا ما قرَّرْتُـه صامتة، خشية أن يلتقط الصدى كلماتي ويبدّدها.

***

ورحت أركض، مستعينة بالذاكرة، وبطريقة ابتكرتها أيّام المراهقة، حين كنَّا نقيم سباق العدو بين دروب القرية.

وفـي ذلك الزمان الموغل فـي البعد، كنتُ أتقدّم، وأسـبق الرفاق، وأقف عند حافة «الشِّير»، أو في ظلِّ سنديانة، حيث أنتظر بنشـوة، وصول الرفاق... وأسـمع لهاثهم قبل أن أراهم، وأُبصر

الشَّـــرر يقدح مـــن أعيُنهم والـــدم يكاد يقفز مـــن وجناتهم... ثم أُتابع نشـــوتي وأنا أتأمَّلهم يخرُّون أرضًا، وأيديهم تمسح سيقانهم الـمُـنْهكة.

اليوم، أشعر بكثير من الخجل وأنا أتذكَّر نشوة الانتصار تلك، تســـري في عروقي، ثم تصعد إلى رأسي، فيرتفع ويطول، وأحسُّه يكاد يناطح السحب.

- أنتِ تغشِّين!

- في الركض؟

اسأل بسخرية ولا مبالاة.

- نعم!

يردِّدُون بصوت واحد:

- هناك سرّ، هناك سرٌّ. المباراة مُلغاة حتّى نكشف السر.

يقولون ذلك وهم ينسحبون. وأبقى وحدي، أتساءل:

- ما هو هذا «السرّ»؟!

***

والآن، ها أنا وحدي. هم سبقوني. وأحاول أن أتذكّر «السرّ» القديم.

- إرفعي ساعديك.

صوتٌ يخترق الفراغ ويأمرني:

- ارفعي ساعديْك ليصبحا في مستوى الكتفين.

وأُطيع.
يتابع الصَّوت:
- حَـرِّكيهما مثلما يحرِّك الطير جناحيه.
وأُحرِّكهما.
إرتفعي فوق رُؤوس قدميك.
وأُتابع الطاعة العمياء...
- والآن، انطلقي...

وتنطلــق بي الذاكرة، فأقفز فوق الســطوح، والأودية والتلال. وأتجاوز النهر والمزارع والطواحين، وأخترق الذريرات المنتشرة في الفضاء، مثلَ نسر، بل مثل طائرة نَـفّـاثة؛ ثم أحُطّ على طرف السطح... سطحنا العتيق المُـطَـيَّـن بالحُـوَّارَى. وفجأة أُحسّ بأنّ الطين يتحوَّل إلى تبن، وتنزلق قدماي.. تنزلقان، وأهوي قبل أن أتذكّر كيف أرفع ذِراعيَّ وأُحرِّكهما...
توقظني ســقطتي، فأفتح عيني، وأُهدِّئ ارتعاش القلب، وأنا أُحاول تقدير العلوّ الشاهق الذي منه هَوَيت.

***

وهنا، في هذا المكان، لا ارتفاع ولا انخفاض. الأرض مسـطَّحة، وأنا أقف وسط هذا البلقع، بين نقطة زائغة منسيّـة خلفي، وكتلة بشريَّـة تسابق الريح، لبلوغ الهدف، والهدف عمودٌ من نار.

- إنّها النار، تجذبكم، ألا تبصرون؟...

سؤالي صرخة كالسهم تنطلق من الحنجرة، علَّها تصيب أُذُنًا صاغية، فيلتفت صاحبها إلى الوراء ويبصرني...

- النار تحرق، ألا تدرون؟!...

ويبقى الصوت مسـافرًا مع الريح، ولا يرجع إليّ صداه، ولا يلتفت إلى الوراء وجه واحد!

بلى... يطلع من شقٍّ فوق سطح التراب، وجهٌ لم أبحث عنه؛ وجهٌ بيضاوي الشكل، فيه عينان خرزيتان، ولسان «يلبلب» وتطفر من حوله رغوة بيضاء.

- ماذا؟ أنتِ هنا؟!...

«يلبلب» اللسان بسرعة وكأنّه موصول بذبذبة مكهربة، ويُخيّل إليّ أنّ العينين تبتسـمان، وتنتشرُ الابتسامة فوق الوجه كلِّه، ومنه تنتقل إلى الجسم الأملس اللمَّاع:

- مِن أين طلعتِ لي؟... وأنتِ آخر من يخطر ببالي في هذه اللحظات؟...

- لا يجوز أن تنسَيْ...

- أظنُّ أنّ هناك خطًا ما.. ربطوا اسمينا خطأ، فأنا لم أقابلك، لم أكن تحت «الشجرة»، ولم أقابلك...

خطــر لي أن أتنزّه في البســتان، ثمّ طلعــتِ أنت من الجهة المقابلة، وكنتِ تقفين، مثلك الآن، على طرف ذنبك، وتبتسمين.

وأنا، كنتُ وحيدة، وخرجت أتمشّــى بين الأشجار والمروج الخضر، نعم، كلمتك، بعدما بادرتني، أنتِ، بالخطاب.

كنتُ أتوق إلى مخاطبة أيّ مخلــوق، فقد حصل نقاش حادّ بيني وبين الرجل، رفيقي، وبحثت عن أذن تسمع شكواي!...

- بالضبط... هذا ما أذكره.

- وأنتِ انتهزتِ الفرصة... لحظة ضعفي...

- بل اقتربتُ أقدِّمُ صداقتي ونصحي... ألا تذكرين؟...

- وبفضلــك طُرِدت.. بفضل إرشــادك ونصحك طُرِدْنا كلينا من الفردوس، ورضينا العيش في الشقاء، بعرق الجبين نأكل خبزًا أسود وبلا خميرة...

- ذلك لأنكِ لم تسمعي بدء الكلام.

- لا.. أُغربي عنّي.. لســتُ مســتعدة لأن أسمع بدء الكلام ولا نهايته.

- بل ستفعلين...

- ومن يُجبرني على ذلك؟ أنتِ؟.. لم تعودي تُخيفيني.

- الخوف يحلّ بعد رحيلي.

- ماذا تقصدين؟

فكّري قليلًا تعرفي ما الذي أقصد.. فكّري بسرعة وقرري.

- لا أُريد منكِ أيّ نصح. عودي من حيث أتيتِ، واتركيني.

- وإنكِ لمتروكة هنا إلى أبد الدهر.

- اللئيمة!..

قلتُها وأنا أفرك عينيّ غير مُصَدِّقة، منذ مئات السنين وأنا أحاول غسل الآثار العالقة في صمغ أذني من فحيحها القديم... ومنذ ألوف السنين والصمغ يزداد التصاقًا، ويمتدّ، حتّى صار مفروشًا فوق جلدي، منغرزًا في كلّ مسامّ الجسم.

اللئيمة!.. تختار اللحظات الحرجة، حين تكون النفس مرشّحة للسقوط من أوّل كبوة. لا.. تعلَّمْتُ الدرس جيِّدًا، لن أدعها.

***

- ولكنّها حاولت أن تساعدك. وحدها تقيم هنا. هذا الحقل ملعبها، تسرح فيه وتمرح، بلا حسيب ولا رقيب، وأنتِ خطوت داخل أرضها، ولا تزال قدماك تدوسان تربةً تخصُّها، وهي في وسعها أن تفعل بكِ ما يحلو لها.

- مثلًا!..

- تقاضيك.

- في أيَّة محكمة؟

- لا... لا تحتاج إلى محاكم، تقطع عليك الطريق.
- اليأس حلَّ قبل حضورها.
- كان بودِّها أن تخرجكِ من يأسك.
- بأيّ ثمن؟
- لم تتركي لها الفرصة... لم تتركي الباب مفتوحًا.

***

وبقيتُ «متروكة» في هذه المساحة المقفرة، ورفاقي يجدّون السعي لبلوغ غاية الرحلة، والعمود الناريّ يزداد ارتفاعًا.

إنهم يتّجهون إليه بسرعة البرق، أُبصرهم من بعيد، كتلةً بحجم كرة، بل إنّها تشبه صورة الكرة الأرضيَّة كما تبدو من الفضاء الخارجي.

ومثلما تتدحرج الكرة، هكذا تتدحرج باتّجاه النار، وصراخي لم يعد يبلغ الآذان.

خطوات قليلة ويرتطمون بالعمود: العجوز الأصلع، الأُمّ وطفلها، الصبايا والشبَّان... الذين نهضوا مع الفجر، وبحماسة خارقة قرَّروا القيام بالرحلة... بعد قليل ويبلغون الهدف.

وأنا، مُقَطَّعة الأوصال، مخنوقة الأنفاس، أقف، مثل شجرة صبَّار صحراوية، بلا زهر ولا ثمر.

أرفع ساعدي إلى فوق وأنتظر الصوت، علَّه يخترق الفراغ، ويأتيني من جديد، حاملًا أوامره لأقدِّم طاعتي العمياء.

كنزُها الصَّغير

إنّها المرّة العاشرة، وربما العشرون... لا تذكر.

لقد تكرّرت الهجرة، وباتت طلوع الفجر وخبز الحياة، وإذًا، ماذا ينفع رصف الأرقام؟

همُّها الآن، أن تجمع ما تصل إليه يداها، من خفيف الحمل، وغالي الثمن... (تسمع أصداء قهقهة في صدرها الخاوي: «غالي الثمن؟ وماذا بقي من هذه الكلمة؟»).

تجمع ما هي بحاجة إليه كي تعبر الشارع؛ الحواجز المتعدِّدة الأسماء والمقامات. إنّها تبحث عن الهويّة، أو «جواز السفر» لكلّ فرد من أفراد العائلة. وتأمر كلَّ واحد من أولادها بأن يرتدي كنزة صوف، ويحمل، إذا استطاع، حرامًا أو معطفًا، فالليلة باردة، والهواء المثلَّج يهبّ من فَوْق ذرى الجبال، وينفح وجه بيروت، مع لفحات أُخرى حارَّة، تنصبُّ عليها من فوهات المدافع والراجمات المنصوبة فوق أعلى القمم.

عليها أن تغادر هذا المكان الذي تدعوه بيتًا، ويتألّف من غرفة وحمّام، وزاوية صغيرة، وضعت فيها طبّاخًا وبرَّادًا بحجم قبضة اليد.

إنّه بيتها الجديد. عثرتْ عليه قبل شهرين، حين اضطُـرَّت إلى أن تقترب أكثر، من قلب العاصمة، وذلك بعدما بدأت النار تلتهم حواشي بيت آخر، سكنته بعد هجرة...

***

وظنّت، يومئذ، أنّها سترتاح في هذا الملجأ الأخير، خصوصًا وأنّه قريب من البحر، مـمَّا يُـمَـكِّن الأولاد من اللعب، بعض الوقت، في الطبيعة مع الهواء النقيّ.

لكنّ حساب الحقل...

ماذا يقول المثل؟

حســاب الحقل لم يطابق حســاب البيدر. وصادف «موسم البيدر» في الشتاء، وفي هذا اليوم الكانوني الصاقع.

سمعت الإنذار من الراديو. وطبعًا، راديو «الترانزيستور» معها قبل أيّ متاع.

يقول لها زوجها: «في إمكانك الاســتغناء عن الراديو، وســماع نشرات الأخبار و«الفلاشات» من الإذاعات المتواصلة، حيثما كنت»...

لكنّها حريصــة على هذه البقيّة الباقية مــن الحرّية: على أن تختار إذاعتها، تســمع النشــرة التي ترتاح إليها أكثر من سواها، وتظنُّهــا تحمل أخبــارًا غير منحــازة؛ والإذاعة الأقلّ تشــنُّجًا، وسلبية...

أعصابها لم تعد تحتمل...

***

- وهل بقي لك أعصاب، حتّى تفكّري في الاحتمال؟..

صوت رفيقها يأتيها ساخرًا. إنّه دائمًا متلبّس بهذه الحالة من السخرية.

قالت في سرها:

- الحمد لك يا ربّ! لولا هذه النعمة، لا أدري ما كان سيحلُّ بنا. إنه ينفِّس على الأقلّ. وهو ليس مثل جارنا «أبو المعزّ» الذي «فرقع» قلبه من شدّة الكبت.

أجل! إنّها تفضّله ساخرًا، بل هجَّاء. وتفضّله حتّى، متسلِّطا وخشنًا، ليبقى سندها، وركن بيتها.

***

بيتها...

كم هي مضحكة هذه التسمية! أوَ لن تفارقها؟...

ها هي الآن تلملم آخر ما يربطها بهذا البيت وترحل معه. مع أولادها. أولادهما.

هنا، أيضًا، تذكر سخريته: «الولد الشاطر والذكيّ والحلو يكون ابني أنا... وعندما يتكاسل ويتبشّع يصير ابنك أنتِ»...

وتضحك له. تمضـــغ الكلمات مثل قطع حلوى نادرة وتترك له الفسحة ليفكّر كما يشـــاء. هي لها مساحتها الكبرى من الحبّ والعاطفة. تفرشها حولهم جميعًا، وإليها يأوون في ساعات الضيق والسأم والألم. لها قلبها الكبيرة.

***

تنهمـــر عليها الأفكار من كلّ صوب. الأفـــكار والذِّكريات، وهي الآن بحاجة إلى صفاء الذهن، كي لا تنسى شيئًا مُهِـمًّا. في المرّة الأولى نســـيت هوّية ابنها (ابنهما) البكر، ولن تنسى الرعب الذي أصابها، وصـــدم الفتى عند حاجز الجيـــش الغريب، حين أوقف النفر الســـيّارة ونظر إلى الداخل، نظرة غربلة، ثمّ أومأ بأصبعه إلى حبَّة القلب - فتاها الجميل - وصرخ:

- أنت.. أين هويتك؟

لم يكن غسّـــان قد تعرّض من قبل، لمثل تلك اللهجة الآمرة، المُـحَقِّرة. كان يجلس في المقعد الخلفي من سيارة «الرينو» الصغيرة، هادئًا مطمئـنًّا. وسمعتْه يُـتَـأْتِئ كلماته، محاولًا أن يبحث عن عذر. إنّه في الثانية عشرة من عمره، لكنَّه نما بسرعة في إِبَّانَ الصيف. من خلف ظهرها كبر وصَار شابًّا. وهذا الجندي الغريب ينهره:

- هويتك...

وسمعت زوجها يقول:

- الولد ابني، وقد نسي الهويّة في البيت...
قاطعه الجندي وعيناه تقدحان النار والشرر:
- لم أطلب منك التدخّل. سألته هو...
شعرَتْ بأن الريق في فمها، تحوَّل إلى ماء نار:
- اعذره يا أخ، نسيها بلا قصد...
فكان جواب «الأخ» إشارة آمرة، شملت العائلة والمركبة:
- صفُّوا إلى جَـنْب الطريق...

***

لن تستعيد كلّ ما حدث في ذلك النهار. لا تحبُّ أن تتذكَّر الآن. يجب أن يبقى ذهنُها صافيًا، حتّى لا تكرِّر الخطأ.

- هل حملتم هويَّاتكم؟ لِـيضع كل واحد هويّـته في جيبه مع بطاقة المدرسة وبعض النقود.

***

إنزلق لسانها بالعبارة الأخيرة. لم تكن تعلم أن ذكرَ النقود، سوف يجرّها إلـــى مواجهة مع ابنتهـــا الصغرى. وهـــي هاربة من تلك المواجهة، ولا تريدها الآن.

آه! من زلّات اللسان!...

اقتربت منها «تالا» وهمست في أذنها:

- مامي... لا تنسي «الكنز الصغير».
إرتعشت يداها، وكشحت سحابة الغمّ ببسمة مصطنعة:
- وكيف أنْسى يا غالية؟
فأصرّت تالا:
- في هَاتيك المرّة نسيتِ. هل تذكرين؟
قالت لها، وهي تحاول الهرب من عينيها:
- يا حبيبتي، هاتيك المرّة كانت غلطة. لن أُعيدها، أعدك.
وغرقت الكلمة الصغيرة في صدى الصرخات الآتية من الباب:
- أسرعوا... سوف يداهمنا القصف. علينا أن نبتعد...

***

دسَّتِ المفتاح في حقيبتها، قبل أن تصفق الباب بعنف، وهي تخطو إلى الخارج حيث البرد، والليل، والصقيع، و... المجهول.

وحالما جلستْ في المقعد الأماميّ، إلى جانب رفيقها، عاد إليها شيء من الاستقرار والطمأنينة. إنّها معه، مع أولادهما، ونظرها مشدود إلى الأمام.

***

وراحت كلمات تَالا تمحو ذلك الاستقرار العابر المصطنَع، وقد عادت مضخمة، مُجَنَّحة بالأصداء:

- لا تنسي «الكنز الصغير»!..

شَـــدَّت يديها حول الحقيبة حتّى تمحو فكرة مقلقة، راحت تطنّ في رأسها كالذبابة:

- كذبتِ عليها. إلى متى سوف تمضين في الكذب؟!

قالت لأفكارها:

- من أجلها كذبت. حتّى لا أحزنها أخفيتُ الحقيقة، ولي كلّ الثقة بأنّ الأيّام سوف تعوِّضنا، ونعوِّض...

وقاطعها الصوت المؤَنِّب:

- ولكنّ السنين تمرّ، ولا يبدو أنك عُوِّضْتِ بشيء.

- كانت ســنين صعبة: حرب، وتشرّد، وانتقال من مطرح إلى مطــرح... وضياع بين أرجاء الوطن... وقفــز فوق طرق صارت رمالًا متحرّكة... و...

- تَـــالا لن تفهم هذا كلَّــه. يكفيها أنّها صُدِمَــتْ في المرّة الأولى. كان عليك أنتِ أن...

- أعلم... أعلــم. كان عليّ أن أكون أكثر حزمًا وتدبيرًا. كان يمكنني أن أقتصد. وأجمع القرش إلى القرش، ولكن...

- ســوف تدفعين عنك التهمة بالعبارة التقليدية: «زوجي فقد أشغاله... راحت المؤسّسة تنهار حجرًا إثر حجر»...

- ثمّ كانت الهجرات من بيت إلى بيت.

- واضْطرّ هو إلى مواجهة الأمر الواقع...

***

في ذلك الصباح، غادر الفراش غصبًا عنه. كانت عيناه حمراوَين. قال لي: «لم أنم طوال الليل». وحاولتُ أن أتجاهل معنى كلامه، فأجبته:

- كلّنا لم ننم.

كان القصف عنيفًا. قال:

- لا، لم أقلق بسبب القصف، وإنّما...

سألته:

- ماذا تعني «وإنّما» هذه؟ هل أنت مريض؟...

قال:

- يا ليت!..

- ماذا إذًا؟...

ما تعوّدت منه تلك اللهجة الهامدة! فانتفضتُ:

- ما سبب قلقك؟ خبّرني...

قال:

- إنّ المصرف قطع الاعتمادات المالية عن المؤسّسة.

- وماذا يعني ذلك؟

سألتُه بكثير من السذاجة. لم أكن أفهم شيئًا من لغة الاقتصاد. كان هو يتولّى الشــؤون المتعلّقة بالمصارف، والحسابات الجارية

والمؤسَّسة. ولي منه «خرجيّة»، أقبضها في نهاية الشهر، لأنفق على البيت والأولاد، وقد اجتهدت دائمًا حتّى أبقي الموازنة في حجم الضروريّ والممكن كي يتقدّم في بناء المؤسّسة.

وها هو يفاجئني بهذه اللغة التي لا أفهم رموزها!

سالته:

- ماذا تعني العبارة بالكلام الصريح؟

أجاب:

- لم يعد في إمكاني سحب أيّ مبلغ. بل أكثر. صار عليَّ أن أفي بعض الديون...

***

- تَلَمَّسْتُ ساعدي... وتذكّرتُ موقفًا مشابهًا لوالدتي، بعد الحرب العالميّة الثانية. وكانت الحرب أكلت الأخضر واليابس، وجرّدتنا من خيراتنا، وتركتنا أسرة كبيرة، فراخها في عمر الزغاليل... وتوقّف شغل الوالد. وكانت أمّي أوّل من علم، وهرعت لنجدته. مدَّتْ يدها إلى «المباريم» والأساور الذهبيّة المزيّنة ساعديها، فنزعتها وقدّمتها إليه:

- خذها. ولا تطرق أبواب الناس. الذهب لا يفقد قيمته، بِعها واستفِد من ثمنها. حفظتُها في زندي لوقت الحاجة، وها قد حلّت الساعة.

حاول أن يحتجّ فقال:

- هذه تخصّكِ أنت، ولا تخصُّ عملي.

إبتسمتْ وهي تحضن كفَّه بين يديها:

- ليس هناك ما يخصّني من دونك. نحن معًا على الدهر.

بحركة عفويّة، رحت أتلمّس ساعديّ. ولم أجد فوقهما «مباريم» أو أساور ذهبيّة. بلى. فوق معصم يدي اليسرى ساعة رخيصة تخلَّفت عقاربها من زمان، عن رصد الوقت. قلتُ أعاتب نفسي:

- هذا ثمن التخلّي عن التقاليد. رفضتِ دائمًا ارتداء أساور ذهبية، وكنتِ تسخرين من جدّتك، كلّما طرحتْ عليك سؤالها، بكثير من الجدّ والقلق: «يا ستّي، أين الأساور الذهبية؟»...

وها قد وصلتِ الآن إلى نقطة توقّفتْ عندها أجيالٌ من قبلك. ولو كانت لك «مبرومة» وأساور ذهبيّة، لخَلَعْتِها الآن وقدّمتِهَا إليه، وفككتِ «حُكْلَتَه»، وكان لك بعض من فضيلة أمّك وجدتك؟

***

وسمِعْته يقول:

- لم يَبْقَ لديّ سوى الحساب المخصَّص للأولاد.

مَسَّتْكِ كلماته، كما لو كانت سلكًا مكهربًا. كما لو أنّ كلامه مسَّ بعضَ المقدَّسات.

نظرتِ إليه ولم تقولي كلمة. كان هناك أمر طارئ. حاضر أهمّ من المستقبل ومن الماضي. واقع يتقدّم على الأحلام.

أَجَـبْـتِه:

- إفعل ما يجب أن تفعله، ولا تعرّض نفسك لأيّ خطر.

***

وهكذا، جمـع كلَّ ما ادَّخَـرتُـمَا معًا، باسـم الأولاد... لتعليم الأولاد، وأنقذ المؤسَّسة من الانهيار.

يومَها، تـالا كان عمرها ثلاث سـنوات. وكانت قد ادّخرتْ بعض النقود في «قجَّة» فخّار، حطّمتها وقدّمت إليك ما في داخلها:

- أنا كمان، عندي فلوس..

احتويـتِـها بيـن ذراعيكِ، وراحـتِ الدمـوع تنغرس بين خصلات شعرها:

- يـا حبيبة قلبي... سـوف نبدأ معًا من جديد. كلّ أُسـبوع أُعطيك خرجيَّتك.

وردَّت تالا بسذاجة:

- وأنا أحفظها في القجَّة الجديدة.

وشجَّعْـتِـها على ادّخار القروش البيضاء. وكانت أشدَّ حماسة من أخويها؛ لا تُنفق قرشًا على الحلوى، والمتع الصغيرة في حياة الأطفال. أصبح لديها قضيَّة. وراحتْ تسعى جادّة لمساندة الأسرة.

وكان قلبك يتفطّر وأنتِ تعيشين حرمانها الحلاوات الصغيرة. ويسندك صوتٌ آخر من قاع الضمير:

- لا بأس. هكذا يتدرَّبُون على الاحتمال، ويكتسبون مناعة تقيهم الانهيار أمام الشدائد.

***

وصدمة الحرب غرستْ مناعة في صدورهم حتّى عشرة أجيال مقبلة. وكانت لتالا الحصّة الكبرى من تلك الصدمات جميعًا؛ لا لأنّها خسرت أكثر من سَائر أفراد العائلة، بل لأنّها تعيش في عالم النسبة، فهي أصغر من الجميع، وهي الوحيدة التي نسيتْ قجّتها في الخزانة، حين هجرتم البيت الأوّل، تحت وابل القصف. وبالطبع لم تجدها، لأنّ البيت أُصيب بالقصف، ثمّ احترق. وكلّما ذكرتْ لكِ تلك الخسارة، كنتِ تعوّضينها بالكلمات. ثم اتّفقتما على صيغة جديدة، وصارت تودع ما تَدَّخره، في حقيبة جلدية، حَفِظتِها لها في الصندوق السرّي، إلى جانب ما تبقّى لك من محفوظات.

تقولين «حفظتِها»؟

والذي جرى قبل أيّام، ماذا تسمّينه؟

وهذه هجرة أُخرى تطرق حياتكم، وتضطرّكم إلى الرحيل من جديد. تحملكم من الاستقرار النسبيّ، لتطرحكم في الهيام.

وتالا الملسوعة، تقترب منكِ فوق رُؤُوس الأصابع، وتهمس في أُذنك:

- مامي... لا تنسَي كنزي الصغير!

***

لا. لن تكذبي عليهـــا. الصغار يمقتون الكذب. كذلك لن تبوحي لها بالحقيقة. ســـتبقى شـــفتاك مطبقتين، وتظلّ يداك مضمومتين، وكأنّهما تحتويَـان فقاعة هواء، لن تلبث أن تنفجر، وتسمع الطفلة، صدى الانفجار....

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأخير

أشــعر بأنّ يدَ صديقتي الغالية «لينا» تمسك بالقلم، هذه الــمرَّة، وتقــوده فوق الســطور، لتملأ الصفحات كلامًا لم يتســنَّ لها أن تقوله لي، كما هي عادتها، في لقاءاتنا الودّية.

يدها الناعمة، ذات الأصابع النحيلة، والتي تقطر حنانًا، تكتب:

«لم تكوني معي. إنّه الفصل الأخير من الحكاية. لذا أرى من واجبي أن أكتبه، لأُطلعك عليه...

***

وأقول لها، في معرض الدفاع عن النفس:

- أنْتِ تعرفين الظروف التي اضطرَّتني إلى الابتعاد عنك. وذلك الشرخ الكبير الذي شقَّ صدر مدينتنا، بعد حدوث الزلزال و...

وتردُّ عيناها بتسامح:

- أعــرف... أعرف. لا ضرورة للمزيد من الإيضاح، ودعيني أتابع... تذكرين ذلك اليوم، حين عدتُ من رحلتي الأوروبية؟...

كان أوّل عمل قمت به هو زيارتك. كنت مشتاقةً إليك، إلى أجواء بيروت، وأخبار الأصدقاء. واستَقْبلتِني في صالونك الأنيق، وجلسنا نرتشف الشاي، ونتلذَّذ بالكلام عن السفر، وأحدث الأخبار الفنِّيّة والفكرية، ومستقبل الأولاد. خصوصًا مستقبل الأولاد في زمن ينشر ضبابه حول كلّ أفق. وأنتِ، كُنت تُصغين، مثلك دائمًا. ولم يُفُتْكِ التعليق على شكلي، تسريحة شعري، بساطة ثوبي وأناقته و... مظهر العافية فوق وجهي.

***

عند التعليق الأخير توقّفتُ، وثارتْ شكوكي. فَرُحْتُ أتفرس في عينيك، محاولة أن أقرأ تأكيدًا لما تردِّده شفتاك: هل أنت حقًا تبصرين العافية فوق وجهي؟

وبالطبع، لم أطرح السؤال. بقي في خلفِيَّة ذهني، وأنا أقفز معك بين محطَّات الكلام.

كنتُ في غاية الشوق إلى مثل جلستنا الطيِّبَة، وأنا عائدة من غياب أشهر، في بلاد الصقيع والعلاقات الباردة. ولم أُخْفِ شعوري. قلت لك: كم أنّنا أغنياء بعلائقنا الإنسانية؟... وذلك الدفء المتبادل بين الناس، والصداقات الطيّبة، واستعداد المرء لأن يعطي من وقته وذاته إلى الآخرين، وأن يفتح لهم بابه على مصراعيه، ويفتح لهم الذراعين، ويحتويهم بينهما، كما بين شغاف القلب.

وكنــت أقصد كلَّ كلمة أقولها، بــل كلَّ حرف، إذ أنّ صقيع البلاد الشمالية كان لا يزال رابضًا بين كتفي، عالقًا برموش عيني. وأنت تعلميــن أنّي ربيبة تلك البلاد. فيها ولدت وتربَّــيت، وما كــدت أفتح عينيّ على الوجود، حتّــى ودَّعتُ قبيلتي ورحلت... وقال الأهل يومذاك:

- نحن أبناء الشــمال البارد، يصعب علينــا أن نعيش في مناخ الشرق.

وأجبت ببساطة:

- سوف أقوم بزيارتكم بين الحين والآخر.

وتسأل أمّي:

- من أين أتتك الفكرة؟.. من غرسها في رأسك؟

فأبتسم وأردّ عليها:

- هو... ذلك الشاب الأسمر، الحامل في عينيه شموس الكون.

- إذًا، ترحلين على جناح الحبّ!؟

- ادعوا لي بالسعادة.

لا، لم يعترض أهلي على حبّــي وزواجــي بمروان. وظلَّتْ علاقتي بهم طيِّبــة، وصار بيتي المغروس في قلب بيروت، محطَّة لهم، منها يتــزوَّدون بالدفء، يحملونه في عيونهم لاتّقاء قســوة الشتاء الشمالي.

***

عشـــرون ســـنة انقضت، وأنا أعيش في هذا النعيـــم. وعن طريق مروان التحمت بأرضكم، بالناس، بمناخ البلد، الطبيعي والسياسي. ونسيت الكثير من عادات شمالنا، وفي صميم أعماقي، كنت أُحسّ بأنّ جذوري البعيدة مغروسة هنا. ومن ذلك الاحساس كانت تنبع المحبة، وتتدفَّق وتبني البيت الزوجي المشـــترك، وتغذي «جنان»، الطفلة التي تَـوَّجَت سعادتنا، وعمَّـقَت حُبّـنا.

***

وكانت جنان لا تزال طفلة، حين اغتالوا والدها. وشـــعرت، أوّل مرّة في حياتي، بأنّ أركان البناء تهتزّ، ثمّ توشك أن تنهار.

وانتفضت...

فـــي أوج الحـــزن والألم، انتفضـــت. ووقفت علـــى قدمين ثابتتين... أمام صورة لمروان، احتضنت طفلتي، وتمتمت شفتاي الوعد: «ســـوف نبقى هنا، في البلاد التي أحببت. أعِدُكَ بأن أُربّيها على عادات قومك، وتقاليد شعبك»...

***

غريب، كيف تشرد بي الذاكرة، وكيف يتفرَّع بنا الحديث!....

أنا قصـــدت أن أُطلعكِ على الفصل الأخيـــر من الحكاية... فقط، الفصل الأخير، والذي حال دون وصوله إليك ذلك الشرخ العميق في جسد المدينة:

انتهت الزيارة، وأدركت أنّ الوقت مرّ من دون أن نشـــعر به، ولم أستطع أن أودّعك، قبل إطلاعك على آخر أخباري!

***

قُلْتِ: «هناك أمر هامّ أحبّك أن تعرفيه...»

أجل، يا لينا!

قلتِ ذلك بحماسة وفرح، وكأنّكِ مقبلة على بثّ أروع خبر. وكدت أُسيء الفهم، فأسألك عن الرجل الجديد، في حياتك. عن الحبّ الجديد. وبدأت أتفاءل: اخيرًا، لن تبقي وحيدة! وتمنَّيت أن يكون إنسانًا يقدّرك، ويملأ الفراغ الذي خلَّفه غياب مروان و...

الأفكار تكرّ، وتتوارد، وتتزاحم في رأسي، وأنتِ تبتسمين، ثمّ تقتربين منّي لتخبريني همسًا:

- أُجريَت لي عمليّة جراحيّة في أثناء رحلتي.

جفَّلني الخبر. ولم أتمالك نفسي عن سؤالك:

- عملية؟... ماذا تقصدين؟ أنت في أحسن حال.

- نعم، أبدو في حالة جيّدة، وهذا بعدما طمأنني الطبيب، إلى أنّ وضعي ليس مأســـاويًّا، وأنّ الجراحة قد تنقذني. فقد استأصل

الورم الخبيث من جذوره. إنّه جرَّاح ماهر. أكَّد لي أنّنا تغلّبنا على المرض. ولمّا سألته: «حتّى متى؟»، ابتسم ورد عليّ بسؤال:

- هل أنتِ عائدة إلى بيروت؟

أجبت:

- نعم.

ثمّ تابعتُ، وقد أدركت معنى النظرة الساخرة في عينيه:

- تقصد أن تقول لي، يا سيّدي، إن من ينوي العودة إلى بيروت لا يطرح مثل هذا السؤال. فالحياة صارت خطرة، في المدينة التي كانت حضنًا للجمال والسلام. وحظّ المرء في أن ينتهي بانفجار قنبلة، أو سيّارة مفخّخة بات أقرب من حظّه في أن ينتهي نهاية طبيعيّة.

- بالضبط.

قال الطبيب ذلك وتابع:

- على كلّ حال، الإنسان مهدَّد بخطر النهاية، ما دام يحمل في صدره نبض الحياة. المسألة هي في التوقيت.

وبادلته بسمته الساخرة وأنا أهزُّ يده مودّعة:

- إذًا لا بأس، من أن يعود المرء إلى بيروت!

***

وحين ودعتْني لينا، في تلك الأمسية، كان كلّ أثر للسخرية قد تلاشى من بسمتها وصوتها، وعاد الهدوء الطبيعي إلى وجهها،

والنبرة الواثقة إلى كلامها، وبقيتُ برهة واقفةً في الباب، أفكّر في أنّ هذه المرأة نموذج نادر للشجاعة، وإلّا، فكيف يمكنها أن تأخذ هذا الموقف من علّتها؟ من مستقبلها؟

وتذكّرت وقفة سابقةً لها حين اغتيل مروان. يومها ذهبتُ لأعزّيها، لأقول كلمات اختنقت في حلقي، فوجدتُها جالسة مع ابنتها، هادئةً كعادتها، أنيقة الشعر والمظهر. استقبلتني بابتسامة وهي تشدّ على يدي:

- كان مروان يقدّرك... كان محبًّا للجميع، فلماذا قتلوه؟!

قالت ذلك موجّهة سؤَالها إليّ، ومنتظرة منّي الجواب. بقيتُ صامتة، بل بكماء! فأيّة كلمات تقوى على ملء اللحظات الفارغة بيننا؟...

وأذكر أنّي لم أُوَفَّق بإعطاء الجواب، بل أخذتُ يدها بين يدي، وبقيتُ جامدة لحظات، قبل أن تبادر هي إلى الحركة. فتقودني لأجلس فوق مقعد بقربها.

ولم أكن الشاهدة الوحيدة على شجاعة لينا، بل شهد لها كلّ من عرفها، وعرف مروان، ورافقهما ثمّ تابع رحلتها المنفردة الخاوية في السنوات التي تلت.

وها هي الآن، تواجهني. مرتدية درع الشجاعة، وتلك البسمة، تفرشها فوق شفتيها في المُلِمَّات، تمامًا مثلما تفعل في أويقات الصفاء والرضى.

وكم دفعني تصرّفها إلى التساؤل:

- هل أنّ ما أُبصره هو الحقيقة؟ وهل لينا شجاعة؟... أم أنّها ترتدي هذا القناع، الشبيه بأقنعة الممثّلين في مسرحيات الأغريق القدامى، ليظلّ البطل فوق المسرح، مطلًّا على الجمهور، من خلال وجه واحد، قناع واحد، وتعبير واحد، ويترك للمشاهدين أن يخمِّنُوا ما الذي يخبّئه القناع؟

وأحيانًا كنت أفكّر في أن تصرف لينا، هو بدافع اليأس، أقصى حالات اليأس التي تولد في نفس المرء، وتخلق فيها الشجاعة الخارقة! ولم أُحاول مرّة، أن أطرح عليها السؤال. كنت معها أُراقب، وأُصغي وأُعجب.

***

ولينا اليوم بعيدة، والهوّة الفاصلة بيننا ليست شرخًا أصاب جسد المدينة وحسب، بل أنّها أعمق من ذلك وأبعد.

فقط يدها، تنهض من أعماق الهوّة، لتمسك بيدي، وتتابع كتابة الفصل الأخير من الحكاية:

«الآن، تَفَرَّق الناس. لم يبقَ هناك من يبصرني وأنا أنسلُّ مثل خيط من دخان، وأخترق الجدار الفاصل بيننا. لم يكن في بالي أن أُغادر، قبل أن أتصّل بكِ، لكنّهم سدُّوا علينا الطرق... كلُّ الطرق المفتوحة شرايين حيويَّة ومحبّة وتعاطف صدِمَت

بتلال من الحقد والرمال. هدموا الجسور، ثمّ جاءَت تلك الهاوية التي خلَّفها الزلزال، وشقَّت صدر المدينة. وكانت هناك وسيلة أُخرى لم أُحاولها، الاتّصال بكِ تلفونيًّا... ومرّة أُخرى اكتشفت أنّ أجهزة الاتّصال هذه، فقدت حرارتها، ولفظتِ النفس الأخير.

وبقيتْ مخاطبتك على الورق، الواسطة الوحيدة. كتبتُ الرسالة وطويتها، وجعلتها في غلاف أنيق، وهممت بأن أكتب العنوان، فتذكَّرت أنّي نسيت عنوانك، ولم يبقَ لي سوى أن أنسلّ، مثلما ينسلّ خيط الدخان بين ثقوب سرّية، في الجدار، واصل إليك حاملة بقية الحكاية:

كان الليل هادئًا، وأنا أقود سيّارتي الصغيرة في طريق العودة إلى البيت، وأحلم بلقاء صغيرتي... بإطلالة وجهها من خلف الباب... بالأُنس والمرح، أجنيهما من وجودها، بعد نهار من التعب المضني.

وكنت أحلم برفيقي الراحل... مروان. وأشعر بغصّة في أعماقي حين أتذكّر أنّه لن يتمتّع، مثلما أتمتّع أنا، بثمرة حبّنا... ثمّ سمعته يهتف من مكان ما خلف سحابة غامضة، مؤكِّدًا لي أنّني لا أعرف شيئًا عن شؤونه الحاضرة. ولا يجوز لي أن أُصدر الأحكام. ويدور بيننا نقاش حادّ، مثل النقاش الذي كان يحتدم، ونحن نبحث قضيّة تهمّنا. ويستفزّني كلامه، فأتحدّاه بسؤال: «ماذا تعرف أنت، اليوم، عن حالي؟»...

ويبتسم. أجل، أبصرت ابتسامته من خلف تلك السحابة الغامضة، ثمّ اختفى لحظات، قبل أن أسمع دويًّا فجّر أُذنيّ، وقذفني على متن غمامة زرقاء، وشعرت بأنّي خفيفة، متحرّرة من كلّ قيد، من كلّ ارتباط بالواقع، بالماضي، بالأرض وبالناس. انطلقتْ بي الغمامة إلى الضفّة الأُخرى من النهر، وتجمَّدَتْ لحظات، قبل أن تبدأ تقطرني قطرة، قطرة... وما كادت القطرات تمسّ الرمال الصحراويّة الحارّة، حتّى تبخَّرت ثمّ عادت ترتفع خيوطًا ضبابيَّة تلتفّ على نفسها، وتدور في شكل لولبيّ يمعن صعودًا. وفي مكان ما من الطريق التقيت مروان. كان جالسًا تحت ظلال شجرة معلّقة في كبد الفضاء. قلت في نفسي: «هذه شجرة غريبة، شجرة بلا جذور.»

فابتسم مروان، ووقف يصحّح قولي:

- بل إنّ جذورها أعمق من أن يبلغها النظر. ولن يمكنك أن تريها الآن.

لا تزال عيناك زائغتين من تعب الرحلة.

وسألته ذاهلة:

- هل كنتُ مسافرة؟ لا أذكر ذلك، ولا أفهم شيئًا ممَّا تقوله.

فدعاني لأستريح بقربه تحت ظلال الشجرة:

- إبقي لحظات، لتنفضي عنك غبار الطريق.

فتحت فمي لأسأله: منذ متى هو هنا؟ ولماذا لا يعود إلى البيت؟

فختم بأصبعه فوق شفتي. حاولتُ أن أرفع صوتي لأحتجّ، وأقول له: «تأخّرت في العودة إلى البيت، وحبيبتنا جنان تنتظر، وعلينا أن نسرع».

فمدّ يده وأسدل ستارًا كثيفًا أمام عينيّ، ولم أعد أُبصر أو أسمع صوتًا سوى همس الشفتين.

صرخت:

- جنان... هل تسمعني، قلتُ لك جنان تنتظرني.

فابتسم مروان هذه المرّة ابتسامة غير مبالية، ثم مدَّ إصبعًا وأشار إلى صورة ارتسمت للتوّ، فوق ذلك الستار.

قلت:

- إنّه وجه صديقتي آمال.

هزَّ رأسه موافقًا، وسألته:

- ماذا تفعل الصورة هنا؟ من رسمها؟

ومن دون أن يحاول شرح ما يجري بالكلمات، أدركت أنّ مروان يريدك أن تنوبي عنَّا في رعاية جنان، وتكوني وصيَّة عليها لأنّ رحلتي سوف تطول، إذ أنّي تخطَّيتُ هذه المرّة حدود بلادنا الشمالية. وإذا ما جمعتكِ المصادفة يومًا بطبيبي الذي نسيتُ عنوانه، فبلّغيه سلامي.»

قِصَّة حقيقيَّة

قمــتُ بعدّة محــاولات، كي أُوصــل حكايتي هذه إلى أســماع الآخرين، ولم أُوَفَّق.

ولا أدري الآن، ما إذا كان الجمهور الكريم سَــيُعطيني هذه الفرصة من جديد، أمْ يُدير لي ظهره ويمضي، تمامًا مثلما أدار لي ذلك الطفل ظهره، بعدما تقدَّمت في السرد عبارتين.

كان يجلس قربي، وعيناه ترتفعان إليَّ بشــوق نقرأه فقط في عيون الأطفال.

وكان يطلب حكاية... بل كان يصِرُّ عليّ لأحكي.

قلت:

- سأروي لك أجمل حكاية.

وسألني بلهفة:

- وهل هي حكاية حقيقية؟

طـيَّبْـتُ خاطره:

- حقيقية مائة بالمائة.

ارتاحت أسارير وجهه الوردي، وحلَّ في عينيه فرح الترقُّب، وغلى فيهما شوقُ الانتظار.

وما أن بدأتُ أُتأتِئُ الكلمات، حتّى وقف معترضًا:

- ولكن هذه ليست حكاية حقيقية.

ولم يُعطِني الفرصة كي أُبرهن عن صدق نيّتي... أدار لي ظهره وانصرف. ووقفتُ أتأمّله يخرج، ثمّ يصْفق الباب خلفه...

شعرتُ بخيبة تحلُّ مكانَ الفرح في صدري. وتحوَّلَتِ الخيبة إلى غيرة، حين أبصرتُ الصغير يجلس تحت جذع شجرة، أمام الدار، ثمّ ينحني ليداعب حشرة خرجت من باطن الأرض.

وقلت لنفسي في شبه مؤاساة:

- إنّه لا يزال طفلًا، والأطفال لا يُقدرُون الكنوزَ التي نكنزها، ونخبِّئها من أجلهم في شغاف القلب.

***

ولكن، وحين حاولت أن أروي الحكاية ذاتها لشقيقته الكبرى، لم تصبر عليّ أكثر من لحظة، وقذفتِ احتجاجها الرصاصيّ في وجهي:

- الفكرة قديمة، وجيلنا لا يكترث لمثل هذه الحكايات.

قلت:

- إنّها حقيقيّة... أوَلا يهمُّك أن تسمعي عن غرابة حدث واقعيّ؟

فردّت بلهجةٍ ساخرة:

- وما هي الحقيقة في نظرك؟

- إنّها الواقع الذي نتعرّفه عن طريق حواسّنا جميعها.

وقلبتِ الصبية شفتيها:

- هذا رأيُكِ أنت، والحقيقة غير هذا... الحقيقة بعيدة عمّا تقولين.

مضيتُ معها في المناقشة:

- ولكنّـي لا أتحدّث عن الحقيقة المطلقة، يا بنيّة! أنا أحكي عن حقيقة محدَّدة ضمن إطار قصّة.

قالت:

- مـا تعتقدينه حقيقـة... وليس لك الحقّ فـي أن تفرضي اعتقادك على سواكِ، خصوصًا إذا كان من جيلٍ غير جيلك.

تَلقَّيْـتُ الطعنة المريرة بكلتا يدي، ونهضتُ أنا هذه المرّة، كي لا أستمرّ في حوار سلبيّ، فاستوقفني اعتراضها:

- أراكِ تهربين!

ابتسمتُ لها:

- أُحاول أن أبحث عمَّنْ يصغي إلى حكايتي. لا بُـدَّ من أن يكون هناك شخصٌ واحد يهمّه الأمر.

***

طرقتُ باب أقرب الجارات، استقبلتني بالترحاب ومريول المطبخ:

- أهلا بالجارة، أهلا! إنّها مفاجأة سارّة.

- نعم... أحببت أن أفاجئك بحكاية.
- حكاية؟
سألْـتني، وكأنّها لا تصدّق ما تسمع أذناها، ثمّ تابعت:
- حكاية من؟
- لنقل حكاية جرت لأحدهم، أو لأحداهنّ.
- ومن أين جاءك خبرها؟
- كنتُ شاهدة عليها.
- إذًا، هذه لم تعد حكاية.
- وما هي الحكاية في رأيك، يا جارة؟ وكيف تصدرين الحكم قبل أن تسمعيها؟..
- أُصدر حكمي بناء على قولك. تقولين: كنتِ شـــاهدة، فإذًا أنت الآن قادمة للإدلاء بشهادة ما. قولي، هل أعرف الناس الذين عليهم ستشهدين؟
- لا أعتقد... المهمّ هو الموضوع لا الأشخاص.
فقهقهتِ الجارة:
- الشخص أهمّ من الكلام، إذا أخبرتِـني من يكون البطل أو الأبطال، فإنّكِ تثيرين اهتمامي وفضولي وإلّا...
- وإلّا أنصرف؟...
تحفَّزَتِ اللياقة الاجتماعية في صدر الجارة:

- معاذ الله! تَفَضَّلي نشرب القهوة معًا. إنّي أُعدّ كعكة لذيذة، بالجوز والتمر. سوف أُخرجها من الفرن بعد لحظات، انتظري حتّى تتذوّقيها.

- شكرًا. قهوتك دائمة. وألف شكر للكعكة اللذيذة... وشكرًا لأنّك لم تُفْسحي لي في المجال كي أروي لك أغرب حكاية. وهكذا أعطيتني فرصة للمزيد من التأمّل.

***

لكنّ أنامل الكلمات تنقر على باب الصدر، تتلمَّس طريقها إلى الشفتين...

مثل طفل موعود بثوب العيد، بالخروج إلى نزهة، جلست الكلمات على حافة الوعي تنتظر الانعتاق.

ومثل أيّ بائع كسدتْ بضاعته، كان عليّ أن أخرج إلى الشارع، أُنادي، ألتقط زبونًا، إنسانا واحدًا، يكون لديه الوقت والاستعداد كي يصغي إلى حكايتي.

***

أبصرتُ عند زاوية الشارع رجلًا رثّ الثياب، هزيل القامة، يقتعد حجرًا وقد وضع رأسه بين يديه وركّز عينيه على نقطة بين قدميه. قلت:

- إنّه ضالتي المنشـــودة. هذا إنسان طفران، متفرِّغ، لا يشغله عمل ولا تُفسده رياح العصر. أقتربُ منه، وأروي له الحكاية.

واقتربتُ.

كان الوقت مســـاء، والناس يمرّون بنا مســـرعين، حاملين في أيديهم الأكياس والصرر.

لم يلتفـــت واحد منهم إلى المنظر غيـــر المألوف، في زاوية الشـــارع. كان الجوع المسائي يرفع سوطه فوق رؤوسهم، وتعب النهار يشـــدّ ســـيقانهم، ولذا كانت أمامي فرصـــة ذهبيّة، لأختلي بضالّتي المنشـــودة، وأُطوِّق الرجل من كلّ الجهات، واذا اقتضى الأمر أحبس عنه الهواء.

***

- مساء الخير، يا عم!..

لم يرفع رأسه عن الأرض، لم يلتفت إليّ.

قلت: «الرجل أصمّ. فلأتقدم وأقف في مواجهته كي يُبصرني.» وهذا ما فعلته بالضبط.

ولم يرفع الرجل نظره عن الأرض أمامه، ولم يلتفت إليّ..

قلت: «ربّما كان كفيف البصر، أهزّه من كتفه.»

ولم يتحرّك. وشعرت بأنّ أناملي تلامس جسمًا جامدًا.

«ربّما كان تمثالًا.»

هذا ما خطر لي، قبل أن أُحدِّد نظري، وأُبصر قطرات من الدم تسيل من صدغه الأيمن.

الرجل مقتول، وعليَّ أن أفرَّ؛ أهرب قبل أن يُدركني أحدهم، وأُتّهم بارتكاب الجريمة.

ولكن، هل يجوز؟ هل من الإنسانية في شيء أن أترك الرجل في هـذه الزاوية المقفـرة، مع إقبال الظـلام، وأُدير له ظهري؟! لا. الواجب يدفعني إلى أن أخبر الشـرطة. عليّ أن أذهب وأُعلِم الشرطة، وأشهد بالحقّ على كلّ ما أبصرته، وما أعرفه.

ولكن، ما الذي أعرفُه؟

وماذا أبصرت؟..

***

- نعم، أبصرتُ قطراتِ دم، يا حضرة الشرطي.

- منذ متى تعرفين الرجل؟

الشرطي يسألني، وبلهجة يشوبُها الشكّ في أمري.

- منذ دقائق.

- وما الدافع للتعرّف عليه؟

- أردتُ أن أحكي له حكاية.

- حكاية؟! هل تهزإين بي؟ قولي الحقيقة، ما هو دافعك إلى التعرّف بالرجل؟

- هــذه هي الحقيقة. عندي قصّة. قصّة حقيقية، بدأتُ أرويها للطفل، فهرب، انتقلتُ كي أســردها لأخته الصبية، فلم تتجاوب، وســخرت منّي. طرقت باب الجارة، فوجدتُهــا غارقة في أعمال المطبخ... عندها خرجتُ إلى الشارع، وكان هو أوّل من...

- أوّل ماذا؟

- أوّل من لفتَ نظري... كان يجلس في الزاوية، واضعًا رأسه بين يديه، وبصره عالقٌ في الأرض أمامه. شــعرت بأنّه الإنســان المثاليّ المستعدّ لسماع القصّة.

- واقتربتِ منه؟

- اقتربتُ...

- ثمّ؟..

- ألقيتُ عليه السلام.

- وبعدُ؟...

- لم يردّ عليّ.

- فـَ...

- وقفتُ أمامه حتّى يراني...

- وهل رفع إليك عينيه؟

- لا. وهذا ما جعلني أعتقد أنّه كفيف البصر.

- وماذا فعلتِ؟

- مددتُ يدي وهززت كتفه.

- فردّ عليك؟
- كلّا. كانت كتفه متحجّرة و...
- و... ماذا؟..
- ... ذُهِلت، حين أبصرت قطراتِ دم تسيل من صدغه الأيمن.
- هكذا؟ بلا سبب؟!
- لم أقُل هذا.
- إذًا، ماذا تحاولين أن تقولي؟ وهل صدغ الرجل قسطل من قساطل البلدية المهترئة كي ترشح منه الدماء إذا لم يكن هناك سبب؟
- هذا، بالضبط، ما أذهلني، ولذا لجأتُ إليك.
- لتقولي لي إنّك منذهلة؟
- لأخبركَ...
- القصّة؟
- أجل!
- وهي غير قصَّتك الأولى!
- طبعا!
- ولكنّها مثلها قصةٌ حقيقية.
- بالتأكيد.
وأنتِ، وحدكِ، تعلمين ذلك. أنت وحدكِ الشاهدة.
- أَعترض...
- تُـؤدَّين الشهادة، ثمّ تعترضين.

- لا... بل أعترض أوّلًا، إذ إنّي لا أعرف الحقيقة.
- أيّة حقيقة؟ الأولى أم الثانية؟
- الفتاة قالت لي إنّ الحقيقة غير هذا...
- لكنّ الفتاة لم تكن بصحبتك لدى خروجك إلى الشارع!
- صحيح.
- فإذًا، لم يكنْ هناك من يَشْهد.
- على؟
- على الحقيقة. وأنتِ الآن موقوفة رهن التحقيق.
- يا حضرة الشـــرطي، يجب أن تســـمع القصّـــة، وهي قصّةٌ حقيقية، لم أُضفْ إليها حرفًا من خيالي.
- غدًا، في المحكمة، تروينها من أوّل حرف...

رسَالة إلى آن جاكسون

اسمها «آن».

آن جاكسون.

هل سمع أحدكم بهذا الاسم من قبل؟

ربـما سمع بأسماء مشابهة له من القصص الأجنبية، من الأفلام السينمائية أو المسلسلات التلفزيونية، من أحاديث الأجانب الذين يزورون بلادنا... عفوًا، الذين كانوا يزورون بلادنا... «للسياحة».

ربـــما ســـمع أحدكم أسماء مشـــابهًا لاســـمها، فظنَّه الاسم الحقيقي. ويقول لي الآن:

- نعم أعرفها اسمها ليس غريبًا... ولكن ذَكِّريني، ماذا تعمل آن جاكسون؟

أبتسم للفضول الطيّب... وأقول للمتبرِّع بالمعرفة:

- أنـــت على خطأ... لا تعرف آن جاكســـون، ما دمت تطرح هذا السؤال.

ويرتفع صوت آخر:

- أنا أعرفها... إنّها ممثلة. شاهدتها في أحد أفلام «الكاوبوي».

وأردّ:

- أخطأت...

- لا...

ويقول صوت ثالث:

- آن كاتبة من القرن التاسع عشر. قرأنا قصصها مترجمة إلى اللغة العربية.

وأضطرّ إلى أن أصدّه:

- الجواب خطأ.

***

- من تكون آن جاكسون هذه إذًا؟ ولماذا تشغلينا بالسؤال عنها؟

الصبيَّـة تقذف السؤال في وجهي بنزق. لا وقتَ لديها للبحث في المعاجم والقواميس. تريد المعرفة جاهزة، مُعَلَّبة، كأفلام «الفيديو»...

وأقول لها بهدوء:

- يا عزيزتي، عليك أن تبذلي بعض الجهد، كي تكتشفي من تكون آن جاسكون.

ترتدّ الفتاة إلى مزاجها الناري:

- لا يهمّني من تكون، أو ما يمكنها أن تكون، من الآن وحتّى آخر الدهر...

وأبتسم.

لا لشـــيء، إلّا لأنّي أثرتُها، وجعلتها تهتمُّ، ولو بطريقة سلبية، بموضوع يشغلني، منذ أن تسلَّمت رسالتها...

***

يا أحبائي،

آن جاكسون صديقتي.

يمكن أن تعتبروها صديقة مراســلة، إذ إنّي ما التقيتها ســوى لقاءات عابرة، في أحد فنــادق الدرجة الثانية بمدينة عمان. كنت هنــاك، برفقة زوجي المرتبط بعمل زراعيّ، وهي قدمت كي تزور زوجها المهندس الكهربائي. وكنّا نتبادل تحيَّة الصباح أو المساء، حيــن نلتقي على مدخل الفندق، أو في قاعة الانتظار. ولم يخطر لإحدانا أن تتقدَّم خطوة أبعد من ذلك.

ثمّ فاجأتنــي آن، في أحد الأيّام، بالطــرق على باب غرفتي، وكانت بادية الإِجهاد، تكاد تسقط من فرط عيائها:

- مريضة؟

صرختُ، واقتربت أسندها. فردَّتْ بصوت ضعيف:

- نعم. ولهذا قصدتك.

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أطلب لك الطبيب؟

هزَّتْ رأسها رافضة:

- لا... لا أحتاج إلى طبيب. هذه الحالة تصيبني، كلّما هبطت نسبة الملح في جسمي. هل لديك ذرّة ملح؟

- ملح؟!

سألتُ، غير مصدّقة، وتابعتُ:

- وهل يتوصّل هبوط الملح في الجسم، إلى أن يتسبّب في هذا العياء؟

أجابت المرأة:

- نعم، إذا قضيتِ نهارك كلَّه في شمس آب اللاهبة. ثمّ سلَّمَكِ الليل إلى براثن الأمراض المعويّة، والصيفُ ذروة مواسمها.

***

توجّهت إلى المطبخ، فأحضرت علبة الملح، وقدّمتها إليها، كي تتناول منها ما شاءَت، فاكتفت بملعقة قالت إنّها ستذيبها في الماء، كي تجرع منها جرعات خفيفة كلّ بضع دقائق.

- هل أنتِ واثقة بأنّك لا تحتاجين إلى طبيب؟

طرحت السؤال كي أريح ضميري، فأجابتْ بنفيٍ قاطع:

- طبعًا لا أحتاج إلى الطبيب. أنا ذاهبة الآن لأستريح، لأنّنا مدعوان إلى العشاء في منزل مدير الشركة، وعليَّ أن أكون برفقة زوجي.

عند هذا الكلام تركتْـــني، وخرجتْ. وظلّـتْ في بالي. غير أنّني لم أحاول الاتّصال بها، خشية أن أقطع عليها راحتها. ثمّ اطمأننت نهائيًّا، حين أبصرتها في المساء، متألّقـة في ثوب رائع، من الثياب الخاصّة بالسهرات الكبرى، متأبِّـــطة ذراع زوجها بانتظار وصول «التاكسي».

***

وكان اللقـــاء الثاني، حين طرقتْ آن الباب، صَبـــاحَ اليوم التالي، وكانت تحمل حقيبة سفر، وبدت مستعدّة للرحيل:

- أنا راجعة إلى بلادي، لا يمكنني أن أقضي هنا، من وقتي، أكثر مـمَّا قضيت.

- السبب؟

سألتها، بلا حماسة حقيقية لمعرفة ذلك السبب، فردّت بإخلاص:

- أعمالي هناك، تنتظرني.

- انتِ تعملين، إذًا؟ وأنا حسبتك سيّدة متفرّغة...

- نعم، أعمل في شـــراء البيوت القديمة وبيعها. وهذه تجارة هامّة، في بلادي.

- وحدك؟

مرّة أخرى ســـمعتني أســـأل، وأنا أفكّر في الزوج الذي ينفق أوقاته كلّها مسافرًا يلاحق مدّ الأسلاك الكهربائية في كلّ مكان.

- وحدي، نعم. أنا مؤسِّسة العمل وصاحبته الوحيدة.

- أتصوّره عملًا ممتِعًا.

- يمكنكِ أن تقولي ذلك. فقبل شـــراء البيت، يجب أن أطَّلع على تاريخه، وتاريخ العائلات التي شغلته جيلًا بعد جيل. ولكلِّ بيت خصائصه ومميّزاته و... قصصـــه الخارقة. وهذا ما يجعلني مغامرة دائمة إنّما... مع الماضي.

***

لفظتْ آن الكلمة الأخيرة وهي تناولني بطاقتها الشخصيّة، الحاملة اسمها وعنوان إقامتها في بلادها:

- أرجو أن نلتقي مرَّةً أُخرى... وحتّى ذلك الحين، أتمنَّى أن نبقى على اتّصال بالمراسلة.

وبالطبـــع، بادلتها عنواني، عملًا بأصـــول اللياقة، بينما كانت تعبر في بالي وجوه العشرات من الغرباء الذين لقيتهم في رحلات سابقة، فَبَـادلتُهم العناوين، ولم نتبادل الرسائل.

وكنت أظـــنّ آن واحـــدة منهم لا تـــكاد تديـــر ظهرها حتّى تنساني، وتنســـى المكان والزمان، فالغربيّون يعيشون بين الحاضر والمستقبل، لا في اللحظات التي عبرت.

ثمّ تذكّرت أنّها تنفق ردحًا من عمرها في الماضي، فهل يقرّبها ذلك من طبائعنا؟

ثمّ انصرفتُ عنها، حين تلقَّفتْني دورةُ الأيّام والأعمال.

ولمّا عدت إلى بيروت، كانت آن قد امّحت من ذاكرتي، إسمًا وصورة.

***

ثم جاءتْ رسالتها، لتبرهن لي على أنّي أخطأت في فهم تلك المرأة، ولتؤكّد لأفكاري الساذجة أنّ لقاءً عابرًا، على بوابة فندق أو في مصاعده، لا يكفينا للدخول إلى عوالم الآخرين وفهم ما يجول في الزوايا الحميمة من نفوسهم.

***

- يا عزيزتي،

تقول آن!

وبكلّ إخلاص، تكتب وتسأل وتُبدي اهتمامها بالتصعيد الحربي الذي نعيشه، وتريدني أن أزوِّدها بأخباري وأخبار العائلة، فهي، كما تقول، تتابع أخبار لبنان على شاشة التلفزيون، وعبر الراديو والصحف، حيثما كانت.

ولم تنْسَ أن ترسل إليّ صورة عزيزة للدار التي تقطنها مع زوجها وكلبتهما «ديبي» إذ أنّهما لم يرزقا أولادًا، رغم انقضاء عشرين عامًا على زواجهما.

وفي نهاية الرسالة تصرُّ على وجوب انتقالنا، كي نقيم في تلك الدار، إذا ساءَت الأحوال أكثر مـمَّا هي عليه، فتعذّر علينا العيش فوق أرض وطننا.

***

يا لآن اللطيفة!

شـــكرتُها بحرارة، وطمأنتها إلى أنّ الحالة سوف تتحسّن في القريب العاجل... أو هكـــذا كنّا نقرأ في الصحف، وفي توقّعات السياسيّين، محليّين وعالميّين.

وآن لم تقتنع بالجواب. وظلَّت تكتب، وتكرّر دعوتها، مع كلّ بطاقة أو رســـالة تطلُّ بها علينا، من العوالم الشاسعة التي تزورها: فهي تكتب، تارة من الشرق الأقصى أو جزر الباسيفيكك، وطورًا من بلاد القطب الشـــمالي، أو من أدغـــال البرازيل وأفريقيا. ومع مرور السنين صار لديّ مجموعة رائعة من البطاقات الملوّنة بألوان تلك البلدان، وحضاراتها.

وكنت أردُّ على بعض البطاقات حين تسمح الظروف، ويفتح المطار، ويعطينا القصف فرصة الخروج من الملاجئ.

وظلّت آن تكتب، وتكرّر دعواتها. والحرب تتمطَّى وتتثاءب، فـــي مدننـــا وقرانا، على ســـواحلنا وفـــوق جبالنـــا، حتّى أقصى الجرود...

وآن تكتب، وتقول إنّ البيت القديم الجميل في مدينة «لونغدون» لا يزال ينتظر زيارتنا.

***

ومضت مدّة انقطعت فيها آن عن الكتابة.

قلت: المرأة عادت إلى طبيعتها الواقعية. سئمت الكتابة وتكرار الدعوات. بل قد تكون سئمت أخبارنا المتكرّرة: حرب، ضرب، تفجير، حرائق، تهجير وتدمير... المنازل الحديثة والقديمة. القصور الشوامخ والأكواخ.

وعينها ترصد الأحداث.

وفكرتُ:

ربّما كانت آن ترصد، من على شاشة التلفزيون، كيف يهوي البناء المؤلّف من عدّة طبقات، ويصبح ركامًا برمشة عين.

وكيف تَنْقَضُّ الطائرات على حيٍّ عامر فتدكّه دكًّا.

وكيف تغزو موجاتُ العنف المدنَ والقرى، فتقتل، وتفتك، وتهجِّر، وتدمِّر...

وكيف...

وكيف أنتظر من آن أن تكتب بعد اليوم، لتسأل عن أحوالنا؟

وماذا عساها تقول؟ وهل بقيت هناك أسئلة يطرحها أحد من الناس علينا؟

صمتتْ آن بلا شـكٍّ، وعادتْ إلى طبيعتهـا. وربّما ظنَّتْ أنّنا لحقنا بأحبّائنا ومواطنينا الذين ذهبوا ضحايا وقرابين، على مذابح التقاتل الأعمى. ربّـما يئست من مخاطبتنا آن، فقطعت رسائلها عنّا. أو...

تُراهـا كتبت مرّة، بل مرّات، وكان المطار مقفلًا، والرسـائل ضلّت سبيلها إلينا؟

وآن ليست الوحيدة التي انقطعت عن مراسلتنا، فهناك من هم أقرب إلينا وأعزّ... هم أيضًـا توقّفوا عن الكتابة وكفُّوا عن طرح الأسئلة، لأنّ الإنسان لا يكتب إلى الضَّـيَاع، ولا يكتب للمطارات المغلقة، للأجواء المحترقة... إذ لا جدوى من أن تحمل الرسالة سـؤالًا عن الصحّة، قد يصل بعد أسـابيع، في حين أنّ القذائف والشحنات الناسفة تنقل أرواح الناس إلى ديار الآخرة، بين انطباق الجفن وانفتاحه.

ونحـن توقّفنا بدورنا عـن الكتابة، لأنّنا اتّكلنـا على الأنباء الأسـرع، وعلى ترجمـة لمثل إنكليزي يقـول: «لا أخبار، أخبار طيّبة»...

***

كان شيء من هذا الخمول الذهنيّ يتمشّى في كِـياني، عندما حمل إلي البريد رسالة وحيدة فريدة، قضت على الطريق قرابة الشهرين.

والرسالة من... آن جاكسون.

بعثتْها من بيتها في «لونغدون»، على أثَر عودتها من رحلات «قريبة» حملتها إلى:

سويسرا، للتزلّج...

نيجيريا، برفقة زوجها لمدّ أسلاك كهربائية...

ألمانيا، من أجل زيارة أصدقاء...

النمسا، لقضاء عطلة الأسبوع...

ثمّ عادت إلى بيتها، لأخذ قسط من الراحة، قبل أن تعود إلى التنقّل من جديد بين الهند، واليابان، والخليج العربي!

وتقول آن إنّها، قبل أن تدبّج رسالتها، سمعت أخبارنا من الراديو، وشاهدتها على الشاشة الصغيرة، فأدمت قَلْبَهَا أخبارُ القتال، وفكّرت في أنّها وزوجها من «البشر المحظوظين». إذ يعيشان بعيدًا عن المآسي التي تجتاح العالم.

***

وآن الطيّبة تُكَرِّر دعوتها هذه المرة بإصرار وتقول «إنّ الدار ستكون مفتوحة لنا في أيّ وقت شئنا أن نمضي العطلة في الخارج».

وأرفقتْ دعوتها هذه بصورة ملوّنة، تُظهر واجهة الدار العريقة وقسمًا من الحديقة في أوج اشتعالها بالزهر، ومن خلفها الغابات الخضراء، وقد بدت أشجارها مثل وعود الأمل.

وأضافتْ آن إلى صورة الدار، واحدةً لها مع زوجها، مأخوذةً من ركن في إحدى القاعات الفخمة. وربّما شعرت بأنّ هذا لا يكفي، فزوَّدت المجموعة ببطاقة فَنِّيَّة، لأطفال مرحين، يرتدون الثياب الملوّنة، ويرقصون فوق الثلوج، وحول شجرة الميلاد، تحت سمع رجل الثلج التقليديّ، وبصره...

***

وأنا الآن حائرة:

كيف يمكنني أن اجيب عن رسالة العزيزة آن؟ فالكهرباء، في حيِّنا مقطوعة... تحجزنا في الملجأ القذائف العشوائية، والسواتر و«الدشم» الترابية والأكياس والبراميل المعبّأة بالرمل.

والمطار المقفل؟ والسيّارات المفخّخة؟ وتلك المشكوك في تفخيخها؟ فضلًا عن القصف الكلامي، والذي كلّما انهمر علينا، أصاب منّا مقتلًا؟!

وأقول لها:

«يا آن الطيبة!

عليك أن تنتظري بعض الوقت. ربّما أيَّامًا او أشهرًا أو سنين... حتّى يتسنَّى لي أن أردَّ على رسالتك، وأخبرك، بالتأكيد، ما إذا كانت الحالة تسمح لنا بالخروج من القبو - الملجأ، لنتمشّى في... باحة الدار!

كلُّهنَّ أمُّه

- من تكون هذه المرأة الجالسة عند العتبة، مُلتفَّة بحزن الأيّام؟
- هذه أُمُّه، يا صديقتي.
- والأُخرى، تلك الجالسة في الجهة المقابلة وقد تدثّرت بالسواد؟
- أُمُّه يا صديقتي، هي امه.
- وتلك؟... وتلك؟...
- أيضًا... وأيضًا.. أمّهات.

هذا ليس مقطعًا من مأساة إغريقية، بل هو مدخلي إلى الحكاية. والحكاية حدثتْ بالأمس، وهي مستمرّة اليوم، وقد تعود في الغد.

وإذا تحــوَّل الزمــان والمكان، فالأحداث تتكــرَّر، والأبطال يتبدَّلــون، ما يــكاد واحد منهم يســقط، حتّى يحــلّ آخر مكانه. المسرحيّة يجب أن تستمرّ، والجمهور يعيش في لهفة الانتظار.

***

كنت وحدي، أُشــكِّل الجمهور، أمَّا الآخرون فصعدوا المسرح، وأخذ كلٌّ منهم مكانه، وراح يؤدِّي الدور المخصّص له.

وقفتُ وسط الساحة، وراحت المشاهد ترتسم بشكل دائريّ، أمامي، ومن حولي.

وقفتُ، ذاهلة عن نفسي، أسمع الأصوات والصرخات، وأُبصر المناظر تتفجَّر أمام عينيَّ، فأحار على أيِّها أحُطُّ النظر؛ بينما تترجّع في الذاكرة أصداء الأيّام الماضية.

وأتلفَّتُ حولي من جديــد، فأُبصر في الزوايا حجراتٍ فارغةً تُطِلُّ منها رُؤوس أشباحٍ مجهولة، ترتدي أقنعةً، وأُدرك بالحَدْس، وجه من يكون خلف القناع. وأبقى صَامِتة... أبقى صامتة.

***

طال صمتي. والصراخ ينتشــر من حولــي، وينهمر على الطرق، يغطِّي الساحات، يتسلَّق الجدران، ويتغلغل في «عِـباب» الشجر.

الصراخ وصداه، وسيلة التعبير الوحيدة.

أمعنت السمع جيّدًا، كي ألتقط كلمة واحدة من اقوالهم، فلم أُفْلِح. فقط، صراخ.

وارتفعت حرارة الشوق في صدري: أُريد أن أفهم ما الذي يجري فوق خشبة المسرح، ماذا تراهم يقولون، ويفعلون؟...

ولم يكن أحد مستعدًّا لأن يَرُدَّ عليّ، أو يستجيب لرغبتي. الجميع، وبصوت واحد، كانوا يشتركون في إطلاق تلك الصرخات الراعبة. وبينما تمكَّنت، في بدء المسرحية، من أن أُفَرِّق بين الأشخاص، فإنّ تلك المقدرة ضاعتْ منّي في المشهد التالي، وحين تشابكتِ الأشكال، وتلاحمتْ، وصارتْ كتلةً بشريَّةً واحدة، متراصَّة، هدفها الأوّل والوحيد إطلاق الصراخ.

***

تراجعتُ خطوتين إلى الوراء، ونظرتُ حولي، مستعينةً بالوجوه - الأقنعة - المُطِلَّة من الحجرات الفارغة حولي، لكنّ هذه أيضًا أخذتْ منّي موقفًا سلبيًّا، وتجاهلتْ حضوري.

- أريد أن أفهم، ما الذي يجري فوق المسرح... أنا جمهوركم الوحيد...

خرجتِ الكلمات من بين شفتيّ، وراحتْ تطنُّ في الفضاء من حولي ثمّ تعود فتضرب أذنيّ إذ لم تكن هناك أُذُنٌ واحدة مُستعِدَّة لاستقبالها...

- هل أنا الغريبة الوحيدة الجاهلة في هذا المكان؟

مـــرَّة أُخرى لم أســمع الجواب. ولكنّي لم أيأس. وتابعتُ حواري من طرفٍ واحد:

- قولوا: هل تريدوننـــي أن أخرج من هنا؟... أنا، جمهوركم الوحيد!...

أيضًا وأيضًا لم يلتفت أحد إليَّ.

***

- يا إلهي!..

أطلقتُ الدعاء، كي لا أسمح لليأس المطلق، بأن يتسرَّب إلى كياني، ويســيطر عليَّ. فإذا كان الممثّلــون لا يكترثون لحضوري فلماذا أنا هنا؟... لماذا أنا هنا؟...

فكــرتُ في أن أُغادر المكان فورًا. ورحتُ أبحث عن الباب؛ عن الإشــارة الهادية في قاعات المسارح، والتي تقول: «الخروج من هنا». وتشــير إلى ذلك بالنور والكلمات. إنّما تلك الاشــارة لــم تكن ظاهرة؛ وإذًا فليس أمامــي إلّا أن أبقى في الداخل، وقد أختنق، وأنا أُصغي إلى الصراخ يتفجَّر في أذنيّ.

***

كنت في تلك الحالة من اليأس المطلق، حين رفع أحد الأشـباح قناعَه عن وجهه، واقترب منِّي، وبادرني بالسؤال:

- منذ متى أنتِ هنا؟

قلتُ، وشيءٌ من الخوف يُربكني:

- منذ البدء. منذ أن فُتح الستار وبَدَأتِ المسرحية.

- وماذا رأيتِ؟

- ما أراه الآن.

- وماذا فهمت؟...

طأطأتُ رأسي بخجلٍ وقلت:

- أعتـرف لك، صراحة، بأنّي لم أفهم شـيئًا: فَـأنا تعوّدت التحاور بالكلمات.

- وهم يصرخون!..

- نعم. نعم...

قلتهـا بفرح الخلاص، فقـد جاء أخيرًا مـن يفهم وضعي، وربما أنقذني.

- ولماذا تبقين، إذًا؟...

عاد اليأس ينشر خيامه في عيني:

- المخارج مُـقْـفَلة، والمعابر مقطوعة؛ يبدو أنَّ قَدري دفعني لأكون هنَا.

هَـــزَّ الشبح رأســه، وبدا لعينيّ كأنه يُفَـــكِّر، وربّما يسعى لإيجاد حلّ... وَوُلِد في نفســي رجــاء جديد، حاولت أن أُفصح عنه، لكنّ الفرصة لم تُتَح لي. أعاد الوجه قناعه وتراجع، ليقف في مكانه السابق.

***

شــعرتُ بخيبةٍ مريرة، فقد رَدَّتْ كلمات الشبح بعضَ الرَّجاء إلى نفســي، لكنّ انســحابه على تلك الصورة الغامضــة، دفعني إلى الغرق فــي اليأس من جديد. ولم يكــن أمامي منفذ آخر أخلص منه، فعدتُ أُتابع صرخاتِ الممثِّليــن، وهذه المرَّة أبصرت امرأة تنفصل عن الكتلة البشــرية، وتتقدَّم إلى وســط المسرح متجلببة بالسواد، من قِـمَّة الرأس، حتّى أخمص القدمين.

كيف عرفتُ أنّها أمرأة؟..

من الصوت. أجل. كان صوتًا جارحًا ينطلق من أعماق الكيان، ويرفرف في الجوّ، ينشر الرعب والألم.

- إنها تبكي ولدها.

صوت من اللامكان، يبلغني.

من يكون مصدر الصراخ؟..

تُراه التيار الذاتي الواعي يســتيقظ؟ أم إنّها اشارة تصلني من بُعدٍ كونيّ؟

حتّى الآن، لا أعلم تمامًا. فقط فهمت أنّ المرأة فقدَتْ وَلَدَها. وهي لذلك، تَتَّشح بالسواد، وتحزن عليه الحزن المطلق. وترسلُ الصرخة تلوَ الصرخة.

بعد قليل، لاحظت جسمًا آخر ينفصلُ عن الجماعة، ويضع يدًا على كتف المرأة، ثمّ يطلقان معًا، صرخة مزدوجة:

- هذا أبوه.

الصوت الغامض يعود ليشرح لي. قلت، أُداري مخاوفي:

- لستُ في ضَيَاع نهائيّ إذًا، ما دام هناك اتّصال ما، بِخَطٍّ ما؛ وليكن في أعماق اللّاوعي، أو في المدى الكَوْنيّ.

***

بدأ شيءٌ من الأمل يعود إليَّ، برغم الجوِّ المشحون بالسواد. فقد انجلتِ الحواجز الضبابيَّة، وعَبْرَ هذا الصوت الجديد، الآتي من حيث لا أدري، بات في إمكاني أن أشارك الجماعة في شعورها والدليل هذه الدمعات الدافئَة، تَسُحُّ من عينيّ، ثمّ تتدحرج نزولًا، حتّى ترتطم بالتراب.

أبكي. أنا أبكي، وأسقي الأرض من دموع عينيّ.

- ولكنّك لست أمه.

الصوت يؤكّد لي، فأقوم بمحاولة جديدة، وأفتح معه حوارًا لم أكن أجرؤُ عليه قبل لحظات:

- لكنّي أُمٌ على أيّ حال!...
- وتبقى دموعك خارج المسرح. أنتِ الجمهور، تذكَّري.
- لكنّي جمهور مشارك.

***

فرحتُ بجرأتي. وخرسَ الصوت، أو ربّما تركني أُتابع تسلسل المشاهد، وأُبصِرُ شكل الأمّ ينفصل للمرّة الثانية، والثالثة والرابعة... ثمّ راحت تلك الأمّ المتكرّرة تؤلّف دائرة واسعة، وأصبح الآخرون نقطة لتلك الدائرة.

***

- إنّه فصل مهمّ من المسرحية.

الصوت يشرح لي، وأُصغي بإمعان:

- تأمَّلي جيّدًا، هل تلاحظين فرقًا بين الواحدة والأُخرى؟

كدت أقول: «نعم»، لكنّي لاحظت أن هذا الجواب متسرِّع، فعليَّ أن أتأمَّلَ قليلًا، قبل أن أُعطي الرَّأي؛ وحسنًا فعلت، لأنّي بعد مرور لحظات من التأمُّل والتفكير، لم أعُد أرى أيّ فرق بين المرأة والأُخرى، لا في الطول ولا في العرض، ولا في لون اللباس أو شكله.

- كلّهن أمّه!

الصــوت المرشــد يؤَكِّد. وفــي الواقع أنّــي حصَّلت ذلك بالبداهة. لكنّــي لم أفهم كيف يمكن أن يكــون ذلك العدد من الأمّهات لابن واحد؟..

مــا كادت هــذه الخاطرة تقفــز إلى ذهني، حتّــى أدركها الصوت شارحًا:

- الأمر بسيط جدًّا.

سألته على الفور:

- كيف؟! لا افهم.

- إسألي دموعك.

قلت:

- دموعي خارجية. إنّها دموع الجمهور.

ردّ عليّ بشيء من العطف:

- الجمهــور المشــارك. تذكَّري أنّ المســرح العصريّ أزال الحواجز بين الجمهور والممثّلين.

مــا كاد الصوت ينهي عبارتــه، حتّى رأيت الشــكل الأوّل، الأمّ الأولى، تخرق الدائرة، ثمّ تسير حتّى تبلغ طرف المسرح.

هنا، ارتعشــتْ مفاصلــي، وأغمضتُ عينــيّ، ورحت أنتظر صدى ارتطامها بالأرض، فقد ظننتُ أنّها ســوف تسقط لا محالة،

إذ لم تكن تسترشـــد بعينيها، بل تمشـــي وكأنّها نائمة أو مخدّرة. ورفعت طرف جفني مثلما يفعل الأطفال، عندما يزوِّرون في لعبة «الغميّضة» فرأيتها تتابع طريقها خارج المســـرح، وتعبر فوق خطّ غير منظور، سائرة باتّجاهي.

خالجني الرعب. وأخذت قوائمي ترتجف؛ فأنا لم أحســـب حســـابًا لأيّ لقاء معها. جئت مستمعة مشاهدة، شاهدة. جئتُ من خارج المسرح، وها هي تقترب وتمدّ إليّ يديها، وقد خرجتا من الرداء الأسود المسربل كيانها، وبدتا ناصعتي البياض، يشعّ منهما نورٌ غريب.

فتحت عيني، جيّـــدًا، وسمعي، وحواسّي جميعها. وشدّدْتُ عزيمتي مستنفرة طاقاتي الكامنة كي أُواجهها بشجاعة وأستعدّ لكلّ التوقّعات. وظلّتِ المرأة تقترب، ثمّ لم أعد أبصر الرداء الأسود. تحوّل كيانُها إلى ساعدَين يشبهان حبلَين من نور غير أرضيّ:

- تعالي...

صوتُها يهمس في أذنـــي. ولا أفهم ما إذا كنتُ أنا المقصودة بالدعوة، فراحت تكرّر النداء:

- أعطيني يدكِ... يدكِ فقط.

مـــددتُ إليها يـــديَّ الاثنتين، واللهفة تهـــزّ أعماقي، وصوتُ الضمير يردّ عليها ويسألها:

- ماذا في وسعي أن أفعل من أجلك؟

- فقط، أعطيني يدك...

قدّمت إليها يــديَّ الاثنتين. وكنتُ على اســتعداد لأن أضع كياني كلّه رهن تصرّفها، ومن دون أن أسألها، ماذا تنوي أن تفعل به... لكنّها استدارتْ على عقبها، وعادتْ إلى المسرح، ولم تلمس يدي، وكأنّها جاءَت لجسّ النبض، وفهم حقيقة موقفي من كلّ ما يجري فوق الخشبة.

ومــا كادت تعود إلــى الدائرة، حتّى راح كلّ جســم حولها، ينفصــل عن المجموعة، ويتحوَّل إلى كيان مســتقلّ، ثمّ لا يلبث هذا الشــكل، الذي حســبته امرأة، لا يلبث أن يتحوّل إلى شجرة عملاقة، رأسها يضرب السقف، وربما يخترقه لينطح الفضاء. أمّا جذور تلك الشجرة، فلم تكن في متناول النظر.

***

- إنّه فصلٌ جديد من المسرحية.

الصوت المرشد ينتشلني من سقوطي في الجهل والضياع، ثمّ يتابع، مثل أيّ دليل مخلص:

- فصل آخر، يستدعي الاهتمام.

- ولكنّي لا أفهم!...

- لا بأس.

يطمئنني الصوت ثمّ يتابع:

- لا بأس. المهمّ أن تبقي حاضرة.

- وكيف تفسّـــر التحوُّل الذي حصل؟ إنّه لأمر خارق، وأبعد مـمَّا يتصوَّر بشر.

وسمعت قهقهة آتية من أعماق هاوية:

- أهذا هو الأمر الوحيد الأبعد من تصوُّر البشر؟.. ما أغباك!..

شعرت بالغضب يغلي في صدري. بأيّة سهولة يؤنّـــبني هذا الصوت! يتّهمني بالغباء، وأنا أجلس بهدوء وأنتظر أن أفهم، وأتعلّم.

بكثير من التواضع والبساطة، دخلت القاعة كي أتعلّم...

- هل فهمت أيّها الصوت المدعيّ المتعجرف؟... أنا هنا، كي أتعلّم. وكدتُ أُضيف، بتردّد الجهلةِ المساكين: «ربّـــما كان هذا مسرح اللامعقول!»...

فردّ الصوت بنبرة حادّة، وهو لا يتخلّى عن موقفه المتعالي:

- بل المعقول، يا سيّدتي. المعقول والواقع.

- الأُمُّ تصبحُ شجرة؟..

- ومتجذِّرة في أعماق التربة...

- هذه فكرة رمزيَّة، وأنا أُبصرها حقيقة.

- فعلتْ ذلك كي تنقذ نفسها.

- مِن؟..

- من الفناء النهائيّ.. هل تودِّين أن تتبعي الخطّ الذي سلكته الجذور في مسيرتها الغامضة؟

- في باطن التربة، تعني؟!

- أجل! وإذا سعيتِ، في وسعك أن تتوصّلي إلى رؤيتها تتمشّى في تلك الأعماق المظلمة. تخترق ذرَّات التراب. تتشرّب الرطوبة والصقيع، وتغور أعمق، وأعمق، باحثةً عن هدف لم يتوفَّر لها بلوغه في مجال النور.

- إذًا، هذا التحوّل ليس عبثًا.

- بل له غاية هامّة. تأمَّليها تتململ... الجذور تسري، تفكّك العناصر التي منها تتألّف الأسرار الصغيرة، وتعيدها إلى بدئها، وتبحث عن عنصر واحد تتوق إلى الاتّحاد به.

- العنصر الحيّ؟

- نعم، والمنبثق من كيانها... هل أدركتِ السرّ؟.. هل فهمت الآن معنى التحوّل الذي حصل فوق المسرح، وغايته؟.. هل؟..

تأتأتُ الجوابَ والرهبة تعقل لساني:

ربّـما...

- تحتاجين إلى الوقت، وإلى المزيد من التأمّل والصفاء.

***

عند هذا الحدّ فارقني الصوت. تركني في القاعة الخارجيَّة لمسرح لم يظلّ مسرحًا، بل تحوَّل إلى غابة تنتصب فيها أشجارٌ وحشية غريبة، جذورُها تلاحق العناصر الأولى، تفكّكها، وتسعى بشوق،

إلى الاتّحاد بعنصر حيّ، انبثق منها ذات يوم، بينما ترتفع رُؤوسها، وتخترق السقف المحدود، وترتقي إلى حيث لا يجرؤ النظر.

***

وبينما كنت في تلك الحالة من الحيرة والضياع، سمعت خشخشة في الغرف الفارغـــة، المحيطة بي. وتذكَّرت الأشـــباح، والوجوه الأقنعة، وتلفَّـتّ علّي أحظى منها ببعض الشرح، كي يزول ما تبقَّى من غموض يغشى البصيرة، فرأيت الأشباح تنسحب. تجرُّ الأقنعة وتنسحب، عائدة إلى الخلايا الخفيّـة، وتُغلق خلفها الأبواب. بل ترفع الجدران سدودًا، فلا يبقى هناك أيّ أثر لغرفةٍ أو لباب.

***

مرّةً أُخرى أؤكّد لكم، قبل أن أغادر صالة المتفرِّجين، أنّ ما نقلته ليس جزءًا من مأساة أغريقية، وإنّما هو بعض الحكاية...

والحكايـــة بدأتْ بالأمس. وهي مســـتمرّةٌ اليوم، وقد تعود في الغد...

يا خوفي! قد تعود...

الطَائرُ الأخضَر

منذ أُسبوع، والرجل جالس فوق الدَّكَّـة المواجهة لمدخل داري.

رجل غريب، لا أدري أيّة رياح قادته إلى حيّـنا.

من يجرؤ... في هذه الأيّام... من يجرؤ على السؤال؟

يسأل رجلًا في زاوية من زوايا بيروت، في شارع من شوارعها، في ملجأ في قبو...

من يجرؤ على أن يســأل إنسانًا كهذا؟ رجلًا، كان، أو طفلًا او امرأة؟... يســأله: «مــن تكون؟ من أين أتيــت؟ ولماذا أنت هنا؟»...

من يُقدم على إشعال الفتيل الموصول بقنبلة موقوتة، ومستعدّة لأن تنفجر في أية لحظة؟!

وهذا الرجل قابع، منذ أسبوع، في الركن ذاته. لا يتحرّك، لا يقوم لحاجة ولا يطلب مأكلًا أو مشربًا...

على الأقلّ هكذا يبدو لي، كلّما وقع عليه بصري، وأنا خارجة من بيتي، أو عائدة إليه.

وليس في وسعي تجنّب النظر إليه فموقعه مقابل، تمامًا، مدخل العمارة. وهو لا ينزوي وراء جدار، ولا يتوارى خلف جذع شجرة، من بقايا ما كان يُسمَّى أشجارًا في أيّام مضت... اختار الجلوس فوق تلك الدَكَّة المنتصبة عند طرف الرصيف، وهي في الأصل بقيّة من برميل، سُكب فيه الإسمنت في مرحلة من مراحل الحرب، كي يُستخدم متراسًا لأحد المقاتلين... فجاء الرجل الغريب، وحوَّله إلى قاعدة ثابتة، يُطلق من خلفها نظراته.

ولا يفيد أن نسأل: متى سُكِب الإسمنت في البرميل؟ ولا مَنْ سكبه... إذ إنّ لذلك قصّةً أُخرى تعود إلى ما قبل تسع سنوات، ولا تزال جاريةً في كلّ القنوات، سارية المفعول في هذا الشارع الجانبي من حيّنا، والذي عرفتْ صفحته سيلًا من الأقدام الغريبة.

***

والرجل مقيمٌ في مكانه، ومن الصعب أن أحجب عنه عينيّ. كما أنّه يستطيع من موقعه «الستراتيجي» الممتاز، أن يصبَّ نظراته عليَّ، كلّما فتحتُ الباب، ووضعتُ قدمي خارج العتبة... أو هكذا يُخيّل إليّ. إذ إنّي لم أجرؤ أن أخطو خطوة واحدة في اتّجاهه، كي أقترب منه أكثر، وربَّما أتعرّف إليه.

«أتعرّف إليه؟»

«ولماذا؟»

أســأل نفســي، وأنا أُقفل باب الســيّارة، وأنطلق بعيدًا عن محطّ عينيه.

***

في الحقيقــة أنّ هذا أكثر مــا ضايقني في الرجل: عينــاه. إنّهما دائمتــا البحث والتقلُّب. تدوران في كلّ الاتّجاهات، تطاردان كلَّ حركة أو إشــارة، تتسلّقان أعمدة الرياح، تنفران من وَقْـبَـيْــهما، وتتحوَّلان في بعض اللحظات، إلى طائرين يحاولان اختراق جدار من الصلب، ثمّ يكتشــفان استحالة المسعى، فيرتدّان إلى مكانهما الأوّل ليعاودا الكرّة، مرّات ومرّات.

***

نعم. عينا الرجل تبحثان عن مفقود. هذا أمرٌ لا يقبل الجدل.

ولكن (أقول لنفسي، في زحمة الشكوك والتساؤلات) ولكن، لماذا اختار الرجل هذا الركــن ملجأً له؟ كان في إمكانه أن يقوم بجولةٍ في شوارع المدينة، لو إنّه فقد شخصًا عزيزًا، شيئًا ثمينًا أو فكرة مشرقة...

لماذا يقبع في نقطة ثابتة، ولا يتحرّك؟

أَلِـكَيْ يُـهَـوِّن عليه البحث؟

و... «لماذا» طويلــة، عريضة، تنطلق من أعمــاق الحنجرة، ولا تتوقّف عند حدّ، بل تنفلــت، وتهيم في الفلاة، ثمّ تضيع في الفضاء، في زحمة تشابك الأصداء.

وكان في وســعي أن أُنقذ نفسي منه ومن «اللماذا» ببساطة: أطرق باب جارة يقظة، تسهر عند تقاطع الخطوط، وتسجِّل حركة المرور.

أو أسأل حارس العمارة... أسأل حارس العمارة!...

فكرة سهلة، بل عاديّـةً جـدًّا. ومن البديهيّ أن تخطر لي، منذ لحظة الشــكّ الأولى. وكان من الطبيعيّ أن يــردّ عليّ الحارس، وهو يمسح قلقي بابتسامته الواثقة من كلّ شيء:

- مَنْ؟.. ذلك الرجل؟ إنه أحد المُـهَـجَّرين.

ثمّ ينتظر أن أُبادره بالسؤال التالي:

- من أيّ منطقة، في الوطن، هُجِّر؟

وهنا، يفتح الحارس الدفتر المكتوب «بالبنط» العريض، والمستخلَص من عناوين الصحف، وتعليق الإذاعات، والحكايات السيّارة الطيّارة:

- الأمر بسيط جدًّا. الرجل مُـهَجَّر وغريب عن الحيّ.

- وهل تحدّثتَ إليه؟

- منذ اليوم الأوّل. جاءَ من إحدى المناطق الساخنة. جماعته تقيم في البناء المقابل. طبعًا تعرفين ذلك. عشــرون أُسرة وأكثر،

تعبّـأُوا في البناية، وملأُوا الشقق الفارغة. عشرون أسرة وأصحاب الشقق مقيمون في أوروبا.

ويتوقَّف الحارس ليأخذ نفسًا، أو ليفهم ما إذا كان هذا القدر مـــن المعلومات يكفيني. ثمّ يرمقني بتلك النظرة الحبلى بالمعرفة والبسمة الواثقة بكلّ شيء. فأردّد في صمتي:

- طوبى للمساكين بالروح! وطوبى للبسطاء..

وأُسقط بقيّة الكلام.

فأنا أســعى في كلّ لحظــة، وعبر كلّ فعــل، إلى أن أحظى بمقدار ذرّة من بســاطة الفكر والروح... أسعى، وكم هو صعب بلوغ هذا المرام!

***

- ويا سيّدتي...

يُتابع الحارس، حين يكتشف أنّي توقَّفت عن السؤال...

يتابــع، لأن حكايةً ما تــدقُّ على جدار وعيــه، وتدفعه إلى الكلام...

حكاية ترفض أن تقف، عند أوّل الطريق:

- يا سيّدتي، للرجل قصّة، بل مأساة...

وأعترض من جهتي، أُوقفه فورًا:

- أوليس له عائلة؟ أقارب؟...

- كيف لا؟ وعائلته تُقيم في الطبقة الثانية من العمارة. أمَّا هو، فقد رفض البقاء هناك. العائلة مؤلّفة....

وأُقاطعه:

- رُبَّـــما صدمة الانتقال مِن جوّ إلى آخر. عمَّا قريب يتعوَّد، وينصرف إلى حياة عادية...

ثمّ أنقل قدمي أنْشُد الهرب... فأنا لا أتوق إلى سماع ما الذي جرى للعائلة... أو ما هو عدد أفرادها؟ وكيف يعيشـــون؟ وسوى ذلك من تفاصيل المأســـاة الكبرى، والتي باتَتْ تُـغَـــلِّف الوطن والكيان... وماذا يُـفيدنا سردُ التفاصيل؟

- هل تسمع، يا رجل؟ ماذا تنفع التفاصيل عندما نفقد الكلّ؟!

- ولكنّ بعضها مهمّ، بـــل ضروري. بعض التفاصيل يختصر الجوهر الكلّي.

فجأةً يتحوَّل الحارس البســـيط إلى فيلسوف، ويتدفَّق الكلام من بين شـــفتيه، ولا يعود ينتظر منّي ســـؤالًا أو موافقة، بل يقف عند باب نصف مغلق، وأنا أهمُّ بالخروج؛ سبابته تشير إلى الرجل الجالس فوق الدّكة، وأســـمعه يروي، بصوت يترجَّح، بين الحزن والسخرية:

- ينتظـــر الطائر الأخضر. هذا الرجل فَقَدَ صوابه. من يلومه؟ الإنسان ليس صخرًا. المصيبة كانت أقوى منه. غَلَبَتْه.

***

ومن جديد، أحاول أن أُفلت من طوق الكلمات، لكنّ الباب نصف مغلق، والحارس يمتطي صهوة الحكاية:

- يقول إنّه سوف يعود. تعرفين حكاية الطائر الأخضر؟ قديمة، من أساطيرنا المنسية: «أنا الطير الأخضر، بمشي وبتمخطر».. هذا مطلعها، يد أُمّه أحيت عظامه الرميم: «أُمي الحنونة/ تلملم عظامي/ وتحطّها في الجرن الرخامي...».

وكانت المرأة الأخرى، الخالة، تآمرت عليه وقتلته، ثمّ جعلت جسده وليمة للأصدقاء. وروح الأمّ وحدها، ظلّت ساهرة، وراحت تصبُّ قطرات الماء، فوق جرن يحتوي العظام الميتة... فأحيتها!

لكنّ ابنها خرج من جلد البشر. وارتدى ثوب طائر، ثوب طائر أخضر راح يرفّ فوق رأس المرأة المجرمة، ينقر عينيها في لحظات ما بين اليقظة والمنام، ليذكّرها بالإثم الذي اقترفته يداها، ويذكّرها أنّ يوم الحساب قريب.

والرجل هنا ينتظر عودة هذا الطائر...

يقول: إنّه يخشى أن يُغمض عينيه، فيمرّ الطائر الأخضر ولا يراه. لذا يبقى ساهرًا، في الليل كما في النهار. وعيناه تدوران في كلّ اتّجاه. فهو يخشى أن يغمضهما لحظة، ويمرّ الطائر خلال الاغماضة.

- و«الطائر الأخضر»، من هو، في الأصل؟

سمعتني أسأل الحارس، بالرغم منّي، فقد جرَّتني الحكاية إلى حماها. تواطأت معه، وجرّتني إلى عتبتها:

- من يكون الطائر الأخضر، بالنسبة إلى هذا الرجل؟

ويبتسم الراوي بسمة لم أفهم مغزاها. فالموقف مأساوي، لا يدعو إلى الابتسام، لكنّ «شرّ البلية ما يضحك». أوَليس هذا ما يقوله المثل؟

إذًا، لا بأس في أن يتابع محدّثي كلامه، والابتسامة الغريبة تغمر تقاطيع وجهه:

- ابنه، يا سيدتي، وحيد على خمس بنات. ابنه البكر، ربَّاه وعلمه. باع ما حوله وحواليه كي يعلّمه في الجامعة. نعم، هذا الرجل الفقير تمكَّن من إرسال ابنه الشاطر إلى الجامعة حتّى يصير «حكيم».. الشطارة موهبة لا تحتكرها طبقة دون الأُخرى. وهو، أعطاه الله ابنًا شاطرًا ثمّ هداه كي يعلّمه. في نهاية السنة يتخرّج من كليّة الطبّ، ويساعد والده على حمله الثقيل، يُعَلِّم أخواته... ومن يدري؟ فقد تصل إحداهنّ إلى الجامعة! من يعلم ما كان ينتظره في مستقبل أيّامه، قبل أن...

- ماذا؟

خرج السؤال صرخة... وتابع الحارس بهدوء:

- نعم، يا سيدتي. قبل أن تتعبَّأ فيه تلك القذيفة القاتلة.

***

التعبير جديد على سمعي.

الحارس ينتقل من الفلسفة إلى الأدب، وينقل الصورة إلى عينيّ. يصفعني بها بكلمة واحدة: «تتعبّأ».

راحت صُوَر المشهد تتراكم في عيني. انتقلتُ من مكاني وزماني، والمشهد يكرّ في شريط سريع مفاجئ، ثم يُعاد عرضه ببطء... ببطء.

- فاجأته وهو خارج من الملجأ. اغتنم فرصة هدوء، ظنَّها هدنة المتقاتلين. قال لأمّه: «أخطف رجلي لحظة فأنقل السيّارة من مكانها إلى موقف آخر محميّ تحت البناية». وقال لأمّه: «يبدو أنّهم يأخذون نَفَسًا، أتمنّى أن يكون طويلًا، كي أخطف رجلي وأبدّل موقف السيّارة»... وفاجأتْه قذيفة. ثم تبعتْها أُختُها، فألصقته بالجدار.

هكذا وجدوه... أبوه، أمّه وأخواته.

وجدوه ملتصقًا بالجدار، والسماء تمطر قنابل وصواريخ ورصاصًا. أجل، كان الرصاص ينهمر مثل المطر، ويدُ أبيه تلَمْلِم بقاياه، وتجمعها في الحضن.

ليلة بطولها، قضاها الأب، جالسًا فوق بقعة الدم، يحضن البقايا الطريئة من جسد الإبن الوحيد.

***

انتزعوه من بين ساعديه انتزاعًا. تعاون الجيران: النساء، والرجال، كي يُقنعوه بأن يسمح بدفنه، وانتزعوه من بين ساعديه.

كان يحضنه ويردّد:

- بردان... الليل مظلم، شتاء وعواصف، وطفلي بردان. اتركوه يتدفّأ في حضني. أُتركوه لي. هذا كلذ ما بقي منه، أُتركوه لحضني.

الجيران تعاونوا، كي يفتحوا الصدَفَة، التي هي جسده، وينزعوا من وسطها حبّة اللؤلؤ الغالية، ثمّ يدفنوها في التراب.

***

وهو الآن هنـــا، بعدما فقد البيت والملجأ. وبعدما غرس في بقعة الدم الفسيحة بقيّةَ الصواب.

إذا اقتربتِ منه، سوف يســـألك، مثلما يسأل كلّ عابر سبيل، وعيناه تدوران في كلّ اتّجاه:

- هل رأيـتـهِ قادمًا؟

وتسألينه بدورك:

- رأيت من؟

فيرد عليك:

- هـــو... ما غيره، «الطائر الأخضر». إنّه قادم، ألا تعلمين؟.. في أيّة لحظة، قد يُطلّ. إقتربي واجلســـي هنا، كي تحضري معي استقباله...

يقول ذلك، ولا يكترث مَنْ أنـــتِ، وما هي ردَّة فعلك. ربما ظَـــنَّك زوجته، ابنته، جارته، أُمّه... ربَّـما ظنَّكِ هنا، لهذه الغاية،

مكتبة
t.me/soramnqraa

مثلما يظنّ الآخريــن. وهو يردِّد كلماته، لــكلّ من يعبر الدرب. يدعوه ليجلس معه، ويُصغي، بصمت، مثلما يُصغي هو. ويُــبقي عينيه مفتوحتين... طَــوَال الوقت، مفتوحتَيــن، بانتظار... الطائر الأخضر العزيز.

بيتٌ ليسَ لَهَا

المفتاح فـي يدها، والبـاب الموصد أمامَهَا، وهـي تحاول: فلا المفتاح يجد طريقه ولا الباب يستجيب.

وتتذكَّر للمرة العاشـرة، تتذكّـر أنّ المفتاح ليس لهذا الباب. لكنّه يعلق بأصابعها كالدبق، كلَّما مَـدَّت يدها إلى حقيبتها.

ينجـذب إليها بقوَّة مغناطيسـية. فتنفيه مـن جديد في جيب مُنفصل، وتعود تبحث عن المفتاح الآخر.

***

وحين يُشَـرَّع الباب أمامها، تتريَّث لحظـات، قبل أن تلج البيت. تُنصِتُ وجلة، خشية أن يكون أحدهم في الداخل، «أحدهم» الذي لا يعرفها، قد يقفز في وجهها ليسألها:

- من أنت؟..

وتتعثَّر الكلمات على لسـانها، ويسـقط في يدها: ماذا تقول للسائل؟ أتخبره لماذا هي هنا؟..

والصوت الذي يطرح السؤال يأتي من الداخل، وهي تقف في الخارج. وتصمت.

تقرّر ألّا تقول شيئًا، لأنّ كلَّ الكلام لا يستطيع أن يشرح: لماذا هي هنا!

***

- نَعَم، لماذا؟..

صوتُ المرأة الجميلة، ينطلق من الصورة ذات الإِطار المُذَهَّب في صدر الصالون. يصرخ في وجهها، فترتعش من قِمَّة الرأس حتّى أخمص القدمين، وتتمتم شفتاها:

- ظننتكِ تعرفين.

تتراجع المرأة الجميلة. يتراجع صوتها عن لهجتهِ المؤَنِّبَة:

- أخبروني. كتبوا من بيروت، وأخبروني.

تمسح قلقها، وهي ترسم ابتسامة تشجّع بها نفسها:

- إذًا، كتبوا...

- نعم... لكنّني نسيت... لا، حسبتُك واحدة غيرها.

تطأطئ الرأس حتّى أعماق الهاوية:

- الحقّ معك... كيف لك أن تعرفيني، لم يسبق أن التقينا من قبل!

***

هذه ليست أوَّل مرَّة تدخل فيها البيت الغريب. إنّها هنا منذ أكثر من أسبوع. أي منذ أن وقعتْ على بيتها قذيفة. من عيارٍ لا تذكره... على بيتها الجميل وسط حديقته الرائعة في ضاحية بيروت.

والقذيفة تكفَّلَتْ بمحو معالم البيت وأتْلَفتْ غرسات الحديقة. وهي تحمد الله على نجاتها مع أفراد الأسرة...

ألف حمد لله.

كانوا مختبئين في ملجأ بناية الجيران. فالبيوت الصغيرة، مثل بيتها، لم تُبْنَ لزمن الحرب. (ولا البيوت الكبيرة) عبارة ملحقة بأفكارها، لأنّها في الطريق من هناك إلى هنا... أي من ضاحية بيروت الخضراء، إلى هذا الحيّ في رأسها (رأس بيروت) أبصرت العجب. واقتنعت بأنّه لا القصور، ولا ناطحات السحاب، يمكنها أن تصمد أمام الأسلحة المتطوِّرة التي يجرِّبونها فوق أرض وطنها... وأمام القصف المُرَكَّز، والعشوائي، والقذائف المَعَيَّرة، وتلك الفالتة من كلّ معيار. رأت العجب وقالت لنفسها المنطوية على الحزن والهمّ:

- يسوانا ما يسوى الناس.

***

ردَّدت المثل، لا لأنّها تعتبر نفسها فوق الناس، لكنَّ المرءَ يمرُّ في أوقات غريبة، وفي حالات من النسيان. وينسى أنّه من التراب وإلى التراب يعود.

ويمرّ في مراحل التألُّق الدنيويّ، فيشعر بالقوّة والجبروت، حين يبصر ظلَّه ينفرش فوق مساحات لا يحدُّها النظر. ثمّ تأتي ضربة من مكان ما، خلف الظنون، ويستيقظ من غفوته فيتذكّر المكان والزمان.

***

وهي، فقدت مكانها الأصيل. واستبدلت به المَسْكَنَ الذي تَوَفَّر لها. صديقة من أيّام الجامعة، دعتها وعائلتها كي تُقيم في هذه الشقّة المفروشة. قالت لها:

- البيت كامل الفرش، وأصحابه قبل أن يسافروا، أوكلوا أمره إليّ.

وناولتها المفتاح.

حظّها كبير. لم تنم في الشارع، ولا في العراء، عند شاطئ البحر، مثلما نام ألوف المشرَّدين. ما أروع الصديق، يُطِلّ وقت الضيق!..

خطت الخطوة الثانية، باتّجاه قاعة الاستقبال، وبحركة لا شعورية، وضعت على أقرب طاولة رزمة أغراض كانت في

يدهـــا. لكنّ الرزمة أكبر من المكان. تمدَّدَتْ وتجاوزتْ حدودها، وأوقعتْ تمثالًا صغيرًا من تماثيل آلهة الأغريق.

***

إنه إحساســـها الدائم بالذنب مـــذ وطأتْ قدماهـــا أرض المنزل الغريب، ومذ أن حاولتْ، لأوّل مرّة أن تفتح الباب بالمفتاح الذي ينجذب إلى أصابعها بقوّة مغناطيســـية. تطـــأُ الأرض وتعتذر من البلاط خشيةَ أن تكون أثقلتْ عليه.

تضـــع أدواتها على طاولة أو منضدة، فتشـــعر بأنّ الحاضرين يتأفّفون.

الأطفال يطلُّون برؤوسهم الحلوة من أُطُر الصور، ويصرخون في وجهها:

- هذا مطرحي... وأنتِ مكانك في غير هذا المكان.

وتنقلب ابتساماتهم البريئَة إلى شظايا غاضبة.

والســـيّدة الأنيقة، في «البرواز» الكبير، تمســـك بطرف ثوبها الفضفاض... الثوب الذي اختارته لمناسبة الزواج قبل نصف قرن من الزمن... وتهرول صوبها:

- من أيَّـة كُـوَّة دخلتِ؟..

ويهزّ عريســـها برأســـه، وهو يشـــدّ ربطة العنق - الفراشة ويقول بهدوء:

- ربّما أخطأت السبيل... مهلًا عليها، لا تخيفيها.

وتصرخ الجوقة فوق الجدار، ومن خلف أقنعة الغبار والزمن... وتختلط أصوات الأجداد، بأصوات الأعمام والأخوال، والعمَّات والخالات، الأحياء منهم والأموات: أُطردوها... إنّها غريبة... وهذا البيت ليس بيتها.

وتحنو الرأس موافِقَة:

- أنتم، جميعًا، على حقّ، وأنا هنا إلى حين... تعرفون، بيتي هدمته قذيفة من عيار...

ولا تُكمل.

يُديرون وجوههم عنها، ويُصمّون الآذان.

تنقل حاجاتها الضروريّة إلى طاولة الزينة، فتطالعها جيوشٌ من القوارير والتذكارات مرصوفة، أو معلَّقة، فوق جناحَيْ المرآة... تزيح بعضها كي توسّع مكانًا لمشطها، ولفرشاتها وأشيائها البسيطة، وهي تردّد:

- لا تؤاخذونا.. الإقامة موقتَّة. ثمّ تضبط نفسها في ذلك الوضع الدرامي، المضحك والمبكي معًا، فتلتقط الضحكة، وتستلقي على أقرب مقعد.

***

في أحلامها، منذ الطفولة، والمراهقة، وأيّام الشباب، مَـــرَّتْ بها صور شتَّى، ورســـمتْ أغرب اللوحات لكنّها لم تحسب حساب وقفتها الحاضرة، ولم تفكّر، ولو حالمة، في أنّها ستلجأ إلى بيت ليس لها.

كانت دائمًا تحسّ أنّ البيت الذي ســيحتويها مع من تحبّ، سوف يبقى محكومًا بقبضة يدها.

في الطفولة بَـنَـتْـهُ من الطين، على ضفّة الساقية المتسرّبة بين بساتين القرية. ولـمَّا كبرت، نما البيت، وكبر معها. وكلّما ارتفعت قامتها ارتفع هو وطال.

حتّى عندما كان عرزالًا من أغصان الشجر، في كروم أبيها، أو فوق سطح منزلهم الصيفيّ، ظلَّ رحبًا، وخاصًّا ومميَّزًا. ظلّ بيتها هي، تنام فيه، وتحلم، وتدعو اليه الاصدقاء.

أمّا هذا البيت، على فخامته، ورحابة قاعاته... فهو ليس بيتها.

***

تســقط الكلمة من بين شفتيها وتغور في قاع الهاوية. ولا تمدّ يدًا لتلقطها.

بعد هذا التاريخ، لا تملك من ماضيها ســوى الكلام. الكلام والذكريات، تغرسها في صمت المكان، وفي فراغ اللحظات.

وتقول لنفسها، في محاولة تعزية:

- الإنسان عابر سبيل. لا يكاد يطأ بقدميه أرض البشر، حتّى يرفَّ به الجناحان ويرفعانه ليُحَلِّق بعيدًا، إلى حيث لم يَحْسب ولم يخطّط، إلى مناطق يجهلها ويعجز خياله، مهما ارتقى، عن رسمِ مَعَالمها.

فيردّ صوتٌ معترض:

- والإنسان شجرة لا ترتفع أغصانها بورقِ الحياة ما لم تغرس جذورها في تربة المكان.

ويترنّح رأسُـها، بين الصوت وصداه، وترى نفسها أمْـيَل إلى الواقع.

منذ أن اقْـتُـلعت من تلك الجذور التي غرسـتها في تربتها الجديـدة (في المدينة) وهي تحسّ الدوار يلفّها، والخدر يسـري في مجاري دمها، وتحمل رأسها بين يديها، وكأنّها تسنده حتّى لا يسقط هو الآخر.

***

ربع قرن من الزمن، كتبتْه بنور عينيها، وقطرات دمها.

ومثلما تبني أُنثى الطير عشها، بنت دارتها الحلوة.

هي وهو، تعاونا معًا على الدهر...

هكذا كانت جدّتها تصف «حياة البَـرَكَة»...

وحبّات البَرَكة مغروسة، منذ اللحظة الأولى، في أُسس البناء. وإلّا، فما معنى أن يكون المنزل صخرًا وحديدًا وخشبًا؟..

ما معنى أن يكون إناء للأثاث الفاخر، ومعرضًا لأذواق الفنّانين والمبدعين الغرباء؟

ما معنى أن يقف في العراء تلطمه الرياح الباردة، بدلًا من أن تسري فيه نسماتُ الحبّ والحياة؟

ما معنى أن يكون البيت شرنقة مُوصَدَةً على الكون، بدلًا من أن يكون عينًا مفتوحة على كلّ ما في الوجود من فرح وأحلام؟

ما معنى وجودها، في هذه الدائرة الغريبة، حيث تبدو الجدران جدرانًا، والأبواب ألواحًا من خشب؟ وما هم لو كانت من خشب الأبنوس الثمين...

إنّه خشب، وحسب... وبلاط رخاميّ مثلّج... وسقف يهبط فوق رموش عينيها، بدلًا من أن يرتفع بها ويحمل روحها إلى أعلى.

***

نهضت من مقعدها، وراحت تتنقّل بين الغرف والقاعات والشرفات:

هوَذا البحر، امتدادٌ صافي الزرقة، حياديّ، يُذكّرها بأوقيانوس القطب الشمالي، الذي زارته ذات يوم في موسم الجليد. وتلك البنايات تتعانق وتتكاتف، وكأنّما الواحدة منها تُخَبِّئ عورة جارتها. والدروب تلفّ حولها، رماديّة اللون مرصوفة بالغبار. وصرخات الأطفال، تأتيها من كلّ الشعاب... وتبقى صرخات

معلَّقَـةً في الهواء، فاقدةً فرح الطفولة. ويقـع نظرها، في النهاية، على شرفات المسـاكن المجاورة، المزدانة بحبال الغسيل، أعلام الأسـر المُهَجَّرة. وتعود فتتذكّر، أنّها ليسـت سوى قطرة من مياه هذا البحر الطامي، المترامـي الأطراف. بل هي حبّةُ رملٍ صغيرة من رمال الشـاطئ... ومع ذلـك، تُعطي نفسـها وأفكارها تلك الأهمّية!...

تتلفَّعُ بحزنها، وتُحَوِّل البيت الحلم إلى شرنقة تكاد تخنقها!

ما بالها؟ وهي التي من موطنهـا الأوّل، من قريتها الصغيرة، عند سـفح حرمون، تحمل الانعتاق والتَّوْقَ إلى السموّ والتقدّم، وذلك الظمأَ الأزليَّ إلى المعرفة واكتناه أسرار الكون...

***

قدماهـا تطوفان بها، بين أرجاء المكان. والتسـاؤلاتُ تَنطلق من أعماقها، وتدور في الحلقات المفرغة من حولها، وتبقى أسـئلة، ساعية للبحث عن أجوبة مقنعة...

ومن أين تأتي تلك الأجوبة؟

أمِنْ جهة الغرب؟.. حيث ترتقي البحرَ سفنٌ حربيَّـة، تلفظ النارَ والدمار؟...

أم من الشمال، حيث تهبُّ الرياح الشماليَّـة الصاقعة، فتخترق مسامّ جسمها جارحة كحدّ السكين؟...

أمِنَ الشــرق، حيث تشتعل الجبهات، وتلعلع أصداء القصف المدفعيّ، ويزغرد الرصاص، يخطّ في الفضاء، بالأحمر والأخضر والأصفر، الأسماء المرشّحة للسقوط... للموت؟

أم من الجنوب؟...

من الجنوب؟!...

من أين تأتي الأجوبة؟...

***

تَضُمّ ذراعيها ضمًّا، وكأنّها تحتمي بهما من كلّ الأخطار المحيطة بها. وكأنّما هذا الكيان الذي هو جسدها، عاد طفلًا ضعيفًا، رُفِعَتْ عنه الحصانة وتُرِكَ في العراء، مرشّحًا لكلّ حالات البؤس والضياع.

تجذبه إلى أعماق الحضن، وتُحاول أن ترفع حوله سورًا، يردّ الخطر ويقيه شرّ الأذيّة.

ثمّ تتذكّر أنّ الأســوار ســاعداها، وليسا سوى جزء من ذلك الكيان الضعيف المرتعش، الذي هو كيانها.

إذًا، فهما أعجز من أن يؤمّنا الحماية المنشودة. والحماية التي تفتقدها في هذه اللحظات، لن تأتي من أيّة جهة منظورة في الكون.

***

أيقظتْها من أعماق التأمُّل طرقاتٌ عنيفة على الباب.

استدارتْ، واتّجهت، بإحساسٍ غريزيّ في اتّجاه المدخل، ثم مَـدَّتْ يدها لتفتح الباب مِن دون أن تسأل مَنْ يكون الطارق...

لكنّها لم تلبث أن تراجعتْ. تَذَكَّرتْ أين هي. ووقفتْ جامدة خلفَ الباب، تُصغي إلـــى القرع يزداد عنفًا، ويدقّ أذنيها بمطارق من حديد. ثمّ انسحبت، وراحت تسير إلى أبعد زاوية في الدار.

فهـــي، لم تكن تنتظر أحدًا من الناس. البيت ليس بيتَها، وهي لا تنتظر أحدًا...

النَّافذة

بعدما انقضى أُسبوع على انزواء العائلة في الملجأ، تَـوَقَّفتْ «رَنا» عن الكلام وصارتْ، إذا خاطبتها اُمُّها أو أبوها أو أحد أفراد أُسرتها، تردّ على المتكلّم بهزِّ الرأس، أو بـإحدى الحركات الإيمائية.

طبعًا، تضايق الجميع من ردود فعل رنا، ولكن أُمّها واجهت الوضع بِتَفَهُّم وصبر، مؤكِّدة للجميع أنّ هذه حالة عابرة، لن تلبث ابنتُها أن تتخلّص منها حال خروجها من الملجأ. واكتفى السامعون بكلام الأُمّ، لثقتهم بها أوَّلًا، ثمّ لأنّهم أرادُوا تفسيرًا يُريحهم، ولا يُبقيهم في منطقة الشكّ والقلق.

***

عُمْرُ رنا تسـع سـنوات، أي بعمر الحرب، بينمـا أخوها الأكبر، «سامر»، بلغ الخامسـة عشـرة، والأصغر منه، «منير»، في الثانية عشرة. وهما رفيقاها معظم الأوقات، خصوصًا في أوقات القصف والانزواء في الملجأ.

وكانت تُصغي إليهما بإمعان وشـــوق حين يتحدَّثان عن الأيّام السابقة للحرب. يبدأ سامر الكلام هكذا:

- أتذكر، يا منير، يوم أخذَنَا أبي إلى جبل صنّين؟

ويهزُّ منير رأسه مؤكِّدًا:

- أذكر بالتمام.

- وكان يرافقنا لنتسلَّق الجبل إلى أعلى قممه، قبل شروق الشمس...

- أذكر، يا أخي...

- ولكن، أنت، كنت تُقَصِّر في بدء الطريق وترجع مع الوالدة إلى الفندق، بينما أستمرُّ أنا في الصعود؟..

وهنا ينتفض منير خشـــية أن يشطح الخيال بأخيه، ويمعن في المزايدة فيتصدَّى له معترضًا:

- لم تتمكَّنْ مرَّة واحدة من بلوغ القِمَّة... أخبرني ذلك أبي...

ويوافقه سامر:

- هذا صحيح، وإنّما كنت أذهبُ أبعد منك كثيرًا..

وحين يفرغ الشقيقان من حوارهما حول تسلُّق الجبل، يفتحان صفحة جديدة مـــن ماضيهما القريب، الـــذي يبلغ رنا عن طريق السمع والحكايات.

وتظلُّ مشـــدودة إلى الكلام بشـــوق، وكأنَّمـــا تلك المراحل البعيدة، والتي ســـبقت ولادتهـــا، تخصُّ عالمًا مســـحورًا، تبذل قصارى جهدها للوصول إليه.

***

صحيح أنّ رنا توقّفت عـــن الكلام منذ بدأت الجولة الأخيرة من جولات الحرب، إلّا أنّها ظلَّت تشـــحذ سمعها كي تلتقط كلّ ما يقال حولها، كذلك ظلَّت مشدودة إلى العالم الضيِّق المحيط بها، متشبِّـثةً به، تشبُّث الغريق بخشبة الخلاص.

وكلمة «عالم» فضفاضة جدًّا على المكان الذي نقصده، أي الغرفة الصغيرة المظلمة حيث انتقلت العائلة لتنحشر في إحدى الزوايا، مكتفيةً بحمـــل «الضروريّات» القصوى للعيش، كالفراش والغطاء والشـــموع وزجاجات كثيرة مـــن الماء ثمّ الكعك والمعلَّبـــات، وبالطبع حقيبة الإسعاف... ومن حســـن الحظّ، أنّ غرفة الملجأ تلك، كانت مجهَّزة بحمام صغير، كما أنّها لم تكن مزدحمة، شأن معظم ملاجئ الحيّ، إذ أنّ سكان البناية رحلوا لقضاء الصيف خارج لبنان، ولم يرجعوا.

رنا قابعــة في محيطها الذي لم تعرف ما هــو أفضل منه، راضيةً عن الحالة، ما دامت وسط أسرة مُحبَّــة. لكنّها ظلَّت تفتقد أشياء بسيطة لا تستطيع أُمّها أن تحضرها إلى الملجأ.

من تلك الأشــياء نافــذة غرفتها المطلَّة على البحر وشــاطئه الذهبيّ.

وكانت رَنا تقضي أمامها ساعات، تتأمَّل زرقة الموج وتسرح في أحلام اليقظــة. وعبر نافذتها تلك، كانــت تتحاور مع العالم الأرحب، فتســمع زقزقــة العصافير فوق شــجرة الكينا المحاذية للدار، وتبصر خيوط الشــمس تبــدِّل ألوانها مع تبدُّل الفصول... وترافق الغيوم الراحلة وتســتقبل لغط الشــارع؛ الأصوات الأليفة المؤنسة والتي تقول للسامع: «نحن هنا، وبخير. ما زلنا نخرج كلّ يوم إلى الشارع، نبحث عن الرزق، ونجدِّد ميثاقنا مع الحياة»...

كانت رنا فتاة ناضجة كثيرًا بالنسبة إلى سنِّها، لذا لم تتحدّث إلــى أحد عن شــوقها إلى نافذتهــا تلك، لأنّها تــدرك بالحدس والممارسة أنّ النافذة التي كانت تصلها بعالم الفرح، أيّام السلام، تتحــوّل إلى معبر يُسَــرِّبُ الخطر والموت، متــى بدأ القصف... وطالما نبّهتها أُمها إلى ذلك كلّما راح صدى الانفجارات يُســمع في البعيد:

أُبْعُـدِي عن النافذة، يا ابنتي... إجلسي في زاوية محاطة بعدّة جدران...

ويومًا بعد يوم، تعلَّمت الفتاة أن تقيس طولها وعرضها، لتعرف أيَّ زاوية في البيت تَـتَّسع لقدِّها الصغير وتحميه.

***

وهذا الملجأ بلا نوافذ. ومن حولها الجدران المقفلة دون العالم، والجدران التـي تحتويها مع عائلتها بحنـان... وتُحِسُّ الفتاة أنّ شـلّالات مـن الطمأنينة تنهمـر عليها، جسـدًا وروحًا، فتجلس ساعات، تطالع القصص الجميلة التي تزوَّدَتْ بها، أو ترسم...

أجـل، رنا مولعة بالرسـم. هذا ما يجوز قولـه، من الظواهر الخارجية، ونتيجة أعمالها. ولا يمكننا الجزم أنْ يكونَ ذلك الولع نتيجـةَ موهبة طبيعيّة، أو أنّه مزيـج من موهبة، ومن تأثير الحرب على طبعها.

هنا، أراني أجنح إلى تحليل نفسيٍّ لست بصدده، فالذي يهمُّني هو تلك المفاجأة التي طالَعَتْ بها الفتاة عائلتها، ذات صباح...

***

اسـتيقظ الجميع بعـد ليلة هوجـاء، لم يهـدأ خلالها القصف المجنون إلّا عند منتصف الليل، حين أُعلِن وقفٌ جديدٌ لإطلاق النار. وكان الجميع قد أُنْهكوا، سمْعًا وعقلًا وجسَدًا، فناموا نوم الخدر. وكانت رنا تسـمع أصوات التفجُّر فـي الخارج، وهي

متوسِّـدة ركبة أمّها، فيرتعش جسـمها اللطيف لحظة، ثمّ يعود إلى الهدوء.

وتذكـر الأُم أنّ ابنتها انزلقت إلى نوم عميق حالَـما هدأَت الأصـوات، فأزاحت الـرأس الغالي عن حضنهـا، وأراحته فوق الوسادة، ثمَّ شـدَّت الغطاءَ جيِّدًا حول طفلتها، وانصرفت لتأخذ قسطها من النوم والراحة.

هذا ما تذكره الأُمّ عن تلك الليلة. لذا لم تستطع أن تصدِّق ما أبصرته عيناها عند صباح اليوم التالي...

***

اسـتيقظ الجميع، كلّ واحد في مكانه، أي في الزاوية التي تخصُّه من الملجأ. لكنّ منظرًا غريبًا طالعهم فوق الجدار الغربي، المواجه للبحـر: كانت هناك نافذة مفتوحة وسـط الجدار، تشـبه بألوانها وتصميمها نافذة غرفة رنا.

صرخ منير:

- إنّها أُعجوبة!.. أنظروا، مَن فتح تلك النافذة في الجدار؟..

وحاول سامر أن يشرح، ويحلِّل الحدث منطقيًّا:

- ربَّـما حصل انفجار في الخارج...

قاطعه منير:

- لم نسمع انفجارًا قريبًا هكذا... تفسيرك غير مقنع.

وجمد الأب والأمّ وهما يصغيان إلى حوار ولديهما، ويراقبان الحدث الغريب، وبقيت رنا على صمتها.

***

لا.

الجدار لم يكن مثقوبًا...

كان الجميع يعرفون ذلك. ولكنّهم، في لحظة ذهولهم، تجاوزوا التفسير الواقعي، وجمح بهم الخيال...

ذلك أنَّ ريشة الفنّان (أو الفنّانة) استطاعت أن «تفتح» نافذة بالألوان: نافذة لا ينقصها النور، وتشرف على البحر والسماء، وعلى شجرة الكينا، والعصافير الراقصة فوق أغصانها، وتنحني قليلًا، لتُطِلَّ كذلك على رؤوس الباعة والمارّة في الشارع.

- إنّها رنا، لا أحد غيرها يمكنه أن يرسم مثل هذه النافذة...

قال منير ذلك، ثمّ اقترب من أُخته وراح يهزُّها:

- قولي، ألَم ترسمي هذا المنظر؟

حَنَتِ الفتاة رأسها، وظلَّتْ تحدِّق إلى الأرض، من دون أن تردَّ على السؤال.

وشعرت الأُمُّ بأنّ رنا بدأت تتضايق وليست مستعدَّة لتخرج عن صمتها، فطلبت من منير أن يتركها وشأنها.

وكانت أمُّها تعلم، أكثر من أيّ إنسان آخر، بأنّ ريشة رنا تقف وراء هذا الإبداع.

تلك الريشة المدفوعة بشوق ملتهب، ينبعث من أعماق نفس فَجّرها الحصار، تمكَّنت أن تتجاوز ذاتها (سنَّها وقامتها) وتتخطّى خبرتها المحدودة، لتعطي نفسها فرصةً طالما تاقت إليها.

***

وكانت العائلة، قبلَ تلك الصبيحة، تَقْدُرُ موهبة رنا. ولكن، وبعدما رسمت النافذة - الأُعجوبة - خرست الألسن، ولم يعد واحدهم يعرف كيف يختار كلماته، كي يعبِّر عن فرحه وإعجابه.

ومع أنّ العمل بحدِّ ذاته كانَ عظيمًا، إنّما المعجزة الكبرى بقيت بلا تفسير:

- كيف أُنجز العمل؟ ومتى؟..

هذا هو السؤال الذي طُرح، حالما استفاق الجميع من الذُّهول والدهشة الأولى.

- متى استطاعت رنا أن ترسم النافذة؟..

أعاد سامر طرح السؤَال، وهو يلفُّ ساعده حول كتفيها، ويُشَجِّعها لتنطق:

- فتاة موهوبة مثلكِ لا يجوز أن تظلَّ صامتة. ونحن لنا كلُّ الحق في أن نعرف متى قمتِ بهذا العمل...

تململت رنا، وانسحبت من طوق الساعد المُحِبّ، وبقيتْ جامدةً لا تنبس بحرف.

وتَدَخَّلَتِ الأُمّ من جديد، محاولة صرف الانتباه عن رنا:

- تعالوا إلى الفطور أوَّلًا، ثم تابعوا التحليل فيما بعد...

كانت، في أعماقها، تدرك أنّ قوَّةً أبعد من الطاقة البشريَّة المألوفة تَدَخَّلَت في غفلة من أسرتها، ودفعت ابنتها الصغرى لتقوم بعمل يتعدَّى سنواتها التسع.

***

اعتمدت الأُمّ على ذاكرتها وهي تلجأ إلى هذا التحليل، وراحت تسترجع ما قرأته من قصص المعجزات؛ فتذكّرت قصّة الفنان موزار الذي أَلَّفَ، وهو في الخامسة من عمره، موسيقى أدهشت العالم...

تذكَّرت قصصًا لكبار الروائيين الذين اعترفوا بأنّهم كتبوا بعض أعمالهم الخالدة، في حالات اللاوعي. وتذكّرت أحد حكماء العرب، «السيّد الرئيس» ابن سينا الذي اعترف بأنّه كان يحلُّ، في نومه، مسائل رياضية يعجز عن حلّها في اليقظة.

تذكّرت الأُمّ هؤلاء، وأمثالهم من البشر العادِّيين، وتساءَلت:

- هل ابنتها عبقرية؟ فإذًا صمتها مقبول، إذ يجوز للعباقرة ما لا يجوز لسواهم، تمامًا كالشعراء والفنّانين.

ثم ضَحِكتْ من نفسها وهي تفكّر في أنّ كلّ أمّ تعتبر أولادها عباقرة زمانهم... وهي امرأة واقعيّة إلى أقصى حدّ، لا تسمح للخيال بأن يجمح بها، ويُغيِّبها لحظة عن واقعها، كما أنّها لا ترتمي فوق أجنحة الوهم، بل تثبّت قدميها جيدًا فوق الأرض الترابية، وهذا العمل لا يجد له تفسيرًا في حساب منطقها وواقعها.

***

- بل هذا الواقع، بكلّ أبعاده...

صوت الأب ينطلق من مكانه في الزاوية.

أوّل مرّة يخرج الرجل عن صمته، ويتدخّل في الحوار والجدل.

وكان من قبل مكتفيًا بالإصغاء إلى الأصوات المناقِشة، وإلى صمت صغيرته، تتنازعه شتّى ألوان المشاعر؛ فبينما هو فَرِحٌ برنا وفخور بإنجازها، ظلَّ يحزّ في نفسه أن تكون ابنته قد بلغت ذلك المدى، كي تعبِّر عن نزعة طفولية فطريّة، هي توقها إلى الحريّة والانطلاق.

لقد أبصر، وراء العمل الفنّي، عذاب النفس الصغيرة، ومحاولاتها المتكرِّرة لفكِّ الحصار عن جسدها وكيانها. وأبصر جناحَيها الناعمَين يرفَّان مثل جناحي طائر علق في شرك نصبه له صائد أقوى منه، وهو لا يملك سوى هذا التعبير: رفيف الجناحين، ومحاولة الإفلات.

ومن أين للصغيرة أن تحقِّق أمنيتها العفوية؟

كيف تنطلق؟

وإذا نجحت في الإفلات من الشـــرك الذي قيَّدها منذ لحظة ولادتها الأولى، وانطلقت، فإلى أين تمضي؟

ومدى الحرّية خارج هذا الملجأ، هو، في الوقت نفسه، الشرك الأكبر، والذي يمكنه أن يقضي عليها ويحوِّلها إلى ضحيَّة، أُخرى، بريئَـة، من ضحايا الحرب الشرسة.

خلف الألـــوان الزاهية، والأنوار المضيئـــة، وارتفاع حاجب النافذة نحو قبَّة الجوزاء، كانت تبدو روح رنا، منكمشة على ذاتها، متجعِّدة قبل الأوان. وهي، في تلك الثنايا الحميمة، والمخبَّـأَة عن أعيُن الفضوليّين، تمارس النضج والنموّ على طريقتها.

وهو، أبوها وحارس طفولتها، وكيلها إلى أن ينمو الزغب في جناحيها ويصبح في إمكانها التحليـــق الطبيعي، بعيدًا عن حضن العائلـــة... هو عاجز عن ردِّ الأذى عنهـــا، وكلّ ما يملكه، لحفظ حياتها وحيـــاة أخويها، هو الهبوط بهم إلى هـــذا الثقب المظلم، حيث لا ينفذ نور، ولا نسمة هواء...

وحيث الوعد بالسلامة والهدوء إلى أن ينتهي جنون الحرب.

***

قال، محاولًا شدَّ عزيمتها:

- إنّه عمل رائع، وفي إمكان رنا أن ترسم أجمل منه...

وقاطعه سامر:

- هذا ليس موضوع خلاف بيننـا. كلّ ما نريد أن نعرفه هو: متى رسمت رنا هذه النافذة؟

- رسمتها في نومها.

أجابه منير مبطِّنًا كلامه بلون من السخرية.

وتابع الأب كلامه:

- نعم، يا بنيّ، ولا تقُل ذلك بسـخرية، بل قُل كلماتك بكلّ الجـدّ والاحترام اللذين تسـتحقّهما رنا... مـن عالمها العجيب والخاّص بهـا، حملتْ إلينا أختُـكُم، هذه الباقة المدهشـة من الفرح واللـون. حوَّلت الملجـأ القاتم المظلم إلى شـرفة تطلّ على الحياة... هذه الصغرى بينكـم، هبطت إلى صميم الأعماق الإنسانية، واستخرجتْ أجمل ما فيها، وقدّمته إليكم.

وتسأل: هل تمَّ ذلك في اليقظة أم في المنام؟

لا فرق بين الحالتين؛ إنّ نوم الفنَّـان هو يقظته.

ورنا، بلا شكّ، فنَّانة رائعة...

***

دوَّى التصفيــق في صمت المكان، مثل انفجــار قنبلة. وتحوَّلت العيــون إلــى الوجه الطفــل الجميــل، وتركَّزت على الشــفتين المرتعشتين، ولم تخفَ عليها دمعات راضية «كرجت» على خدَّي رنا، مثلما تكرج قطرات الندى على بتلات وردة جوريَّة.

***

واليوم، وبعدما انقضت عدَّة أسابيع على هذه الحادثة، لا تزال رنا تتنقّل، مع عائلتها، بين البيت والملجأ، وذلك حسب المناخ الحربيّ ومزاج القصف العشوائيّ الذي يحصد الناس والأبنية والشجر.

وحتّى الساعة، لَم يســتطِع إنسان، في العالم بأسره، أن يقدِّم وعدًا صغيرًا لطفلة بريئة بإنهاء الحرب...

لكنّ رنا، الفنَّانة، والنقيّة كرقعــة ثلج هابطة من الأعالي، رنا هذه، تعرف وبكلّ تأكيد، أنّ حربها هي انتهت.

لقد وضعت لها علامة الوقف، وبكلّ الألوان المدهشة...

معَادلة رياضيَّة سَاذَجَة

إلى «دَلاَل» الأصليَّة التي لا تزال تنتظر جلاء الحقيقية...

بعد دقيقــة، أو دقيقتين، أفتح الباب وأخرج، فأقود ســيَّارتي في اتّجاه الحيّ البحريّ من العاصمة. وحين أبلُغ دارها، أطرق الباب مرَّة أو مرَّتين. وعندما تفتح، وتستقبلني ابتسامتها الحزينة ونظراتها المستغربة، لن أتراجع مثلما كنت أفعل في زيارات سابقة... ولن أُمثِّل، فأُبادلها الابتســامة، وأتجاهل النظرات ثمّ أُرافقها إلى قاعة الاســتقبال، حيث نقضــي ردحًا من الوقت في حديث ســطحيّ يدور حول الشــؤون اليوميّة، بينما نحتسي الشاي، مع الكعك أو بلا كعك... ثم أُودِّعها وأعــود إلى بيتي، مثقلة بالارتباك وتأنيب الضمير وبذلــك الحمل الجاثم في أعماق الصــدر والقارع، من حين إلى حين، على مقدّمة الرأس، والهاتف بعنف وتقريع:

- جبانة!

***

أجل، أنا «جَـبَـانة». أليوم مثلما كنت قبل سنتين.

قلتُها لنفسي في حينه، وأُردِّدُها الآن:

- جبانة! وعليكِ أن تفعلي أيّ شيءٍ غير الهرب والجمود، كي تبرهني العكس وتُـؤكِّـــدي لنفسك، قَـبْـل أن تؤكِّدي للآخرين، أنّك تخطَّيت تلك المرحلة.

***

ولهذا السبب، سوف أخرج بعد دقيقة أو دقيقتين، وبعد أن أطوي هذه الصحيفة المرتعشـــة بين يدي وأحملها إليها، كي أخبرها أنَّ مـــا ورد فيها عارٍ مـــن الصحّة... «والقّصة» ليســـت كما يصوِّرها المحرِّروُن والشهود. ولا كما وصفها القاضي الجالس فوق قوس العدالـــة، والذي قرّر بعد جلســـة، أو جلســـتين، أن يصدر حكم الإعدام على إنسان بريء.

***

وأقول لها، وهي المعنيّة الأُولى بالقضية، أنّ زوجها لم يُقتل على يد الشابّ الواقف في قفص الاتّهام...

أقـــول لها: «تفرَّســـي فـــي عينيه، هـــل تلاحظين فيهمـــا أثرًا لمجرم؟»...

وتسألني:

- وكيف يكون أثر المجرم هذا؟

فأقول: «انظري إليه بتجرُّد، وبعيدًا عن شعور العداء وشهوة الانتقام».

وتردّ عليّ قائلة:

- هذا طلبٌ صعب. كلّهم يَـــؤَكِّد أنّه القاتل. «مروان» قُـــتِلَ على يده، هذا ما قاله الشهود.

وأسألها:

- هل يكفي كلام الشهود، لإلصاق التهمة بالرجل، نهائيًّا؟... ثم أين كان الشهود وقت وقوع الجريمة؟

فتسأل:

- ومـــاذا تريدين أكثر من هذا؟ ثم إنّ الأمـــر باتَ بين أيدي القضاة والخبراء، ولم يبقَ في مستوى التداول الفرديّ.

وأصرخ في وجهها:

- هذا هو الخطر... بل هذا هو الخطأ...

***

وتتهـــاوى صديقتي «دلال». تضعف ويمتقـــع لونها، وهي ترتمي فوق المقعد، وتصرخ بي:

- بربِّكِ، قولـــي، ماذا تخبّئين عني؟ ماذا تعرفين عن الجريمة وتخفينه حتّى اللحظة الأخيرة؟

وتنهار عزيمتي. وتُصيبني الرعدة، وتفرّ الكلمات من فوق شفتي.
فتقترب منّي، وتهزّني يداها بعنف:
- قولي، الآن، أو اصمتي إلى الأبد.

***

وأقول لك، يا دلال:
الآن، وبعد مرور ذلك الزمن الطويل على صمتي وهربي، أقول لك إنّ جريمتي لا تقلّ حجمًا عن الجريمة الحقيقيّة.
وتسألين:
- هل كنتِ هناك؟ هل كنتِ معه وقت الحادث، ولسبب ما، هربتِ وأخفيتِ معلوماتك، كي تحافظي على سمعتك؟
وأقول لكِ:
- لم أكن هناك.
وتسألين:
- ماذا إذًا؟ ماذا تعرفين؟
فأرفع يدي حتّى تلامس أصابعي طرف شفتيك، وأرجو أن تكفّي عن طرح الأسئلة، وتتركيني أنا أتابع الحكاية:

***

- لـــم اكن هناك، لحظة وقوع الجريمـــة. أنت تعلمين أنّها وقعت ليلًا. وفي ساعة متأخّرة من الليل. الثانية صباحًا حسب ما ورد في التقرير الطبّي... وهذا يعني أنّ الشارع كان خاليًا من المارّة. القاتل أحْسَنَ اختيار المكان والزمان. ومروان ساعده على ذلك.

أجـــل. زوجك المغدور، مـــروان، ســـاعده... لا تقاطعيني، دعيني أتابع.

لا. الأمر ليس كما تظنِّـــين. أنا لا أتَّهم مروان. عفوك. أنتقد لامبالاته... أتراه هوس الشـــباب؟ الاعتداد بالنفس؟ أم شـــجاعة البراءة؟

لا. مروان لم يكن بريئًا من كلّ الانتماءَات. سِيَاسيًّا أعني. وهذا لا يحطّ من قدره، بل يرفع شأنه ويُضيف إلى صفاته الممتازة امتيازًا جديدًا: لقد كان مجلِّيًا في إدارة المصرف. كان مثالًا يحتذى، إنْ في الذوق، أو اللطف ورهافة الحسّ... ثمّ في إخلاصه لوطنه وأرضه.

كانت تلك نقطة ضعفه، إذا أدركتِ قصدي:

اضربي معه على معزوفة الوطن، تسلبيه أعز ما يملك. حماسته لوطنه وقضاياه العامة، كانت تنســـيه أولاده وزوجته وعمله... لو جمعنـــا لذَّات الوجـــود ووضعناها في كفَّه مقابِلَـــةٍ لكفَّة الوطنية، لرجّحت لديه الأخيرة، بلا أيّ شك.

ولا أقول هذا على سبيل المديح، بل هي شهادة حقّ حصلتُ عليها نتيجة احتكاكـــي اليوميّ به، في العمل... وهذا أمر طبيعيّ،

فقد كنت «سكرتيرته» والمنفّذة الأُولى لبرامجه العمليّة. وكنتُ، إلى حدّ ما، أحفظ الكثير من أسراره.

حين كان يعود إليك في المساء، متعبًا مجهدًا، ويُبَدِّل ثيابه لتخرجا معًا،د لسهرة أو حفلة عشاء أو مسرح، لم يكن يتوفَّر له الوقت ليطلعك على ما يجول في خاطره، ولا ما يدور في فلك حياته اليوميّة.

أنت، بالنسبة إليه، كنت الملجأ والمهرب. أمّا أنا فرفيقة الدَّرب الآخر: درب الكدّ والعناء، والسعي المُضني على سلّم الارتقاء والتقدّم والنجاح.

لذا، ولهذه الأسباب وكثير غيرها، صرتُ أعرف من شؤون يومه، وأُمور حياته، أكثر ممَّا يعرفه أيُّ شخص آخر... لا بل أستطيع القول: وأكثر ممّا يعرف هو. إذ لم يكن لديه الوقت الكافي ليلاحظ شوارد الأمور أو يتذكَّر ويسجّل ما يعبر فوق صفحة الذاكرة...

كان اليوم يطوي ما سبقه، وربما يمحوه، وهو ماضٍ بتلك الخطوات الواثقة والأكيدة من النجاح وإصابة الهدف.

***

وفي يوم، وبينما كنتُ وحدي معه في المكتب، أُسجِّل رسالة موجّهة إلى إدارة أحد المصارف، توقَّف فجأة وشرد بعيدًا عنّي.

انتظرتُ، ظنًّا منِّي أنه يستجمع أفكاره مثلما يفعل في بعض الأحيان، كي يختصر الكلمات ويجمع أفكاره في أقلّ عدد منها. لكنّ انتظاري طال، ولاحظت أنّ في الأمر أكثر من البحث عن الكلمة المناسبة، فسألته:

- هل هناك ما يضايقك، يا مروان؟

وكنت أعني المضايقة الصحّية، مثل ألم مفاجئ أو دوار...

فابتسم وأجاب:

- كلّا... لنتابع.

وعدتُ إلى القلم والورقة. لكنّه لم يتابع معي. بل نهض، وراح يذرع أرض الغرفة ذهابًا وإيابًا، فيزيدني حيرةً وارتباكًا.

وسألته:

- هل تريدني أن أنصرف الآن؟

فأجاب:

- كلّا، يا منى. أُريدكِ أن تبقي وتصغي إلى ما سأقول لكِ.

وأصغيت جيّدًا إلى سؤاله:

- هل تعلمين أين قضيتُ سهرة الأمس؟

قلت، وأنا لا أتمكّن من إخفاء دهشتي لسؤاله:

- في منزل صديقك «أيمن». أعلم أنّك كنت مدعوًّا إلى عشاء عمل في داره.

- بالضبـــط. ولمّا انتهينا، وهممتُ بالخروج، طلب منّي أيمن أن أُوصـــل أحد المدعويّن (وهو رجل أعمـــال أجنبيّ) إلى فندق «السان جورج»، فقبلت مســـرورًا. خصوصًا أنّه كان هناك حديث معلّـــق بيننا، شـــئت أن أتابعه معه... كانت الســـاعة تجاوز الثانية صباحًـــا. ولاحظت أنّ ســـيّارة فخمة تحرّكتْ حيـــن تحرّكنا. ثمّ تبعتنا إلى الفندق!.. في البدء، لم أُعِر الموضوع اهتمامًا يُذكر. بل كدت أنساه، وأنا منغمس في حديثي مع الرجل... إلّا أنّ الشكوك بدأت تساورني، بعدما أوصلته إلى الفندق، وتوجّهتُ إلى منزلي. ولاحظتُ أنّ الســـيّارة ظلّتْ تتبعني. حاولتُ أن أضلِّلها عند أحد المنعطفات، لكنّ السائق كان متنبِّهًا، فلم تنجح معه الحيلة. وظلّ يقتفي أثري حتّى بلغت المنزل.

وقلت لمروان، محاولةً أن أخفّف من قلقه:

- ربّـما كان الأمر مصادفة. أو ربّـما كان هناك خطأ.

فهزّ رأسه، وهو يرسم فوق شفتيه ابتسامة ساخرة:

- ليت الأمـــر كما تظنّين! إنَّ حادثة الأمس كانت النقطة التي فجَّـــرت الذاكرة، فراحت تتداعى سلســـلة من أحداث غير عادية، بدأت ألاحظها قبل ستّة أشـــهر؛ فحيثما اتّجهت، وأينما وُجدت، كنت أُبصر شـــابًّا في نحو الثلاثين من عمره، يعتمر قبّعة افرنجيّة، ويرتدي ســـترة رماديَّـــة اللون، ويحمل في يده حقيبة سوداء مثل التي يحملها الموظّفون ورجال الأعمال، وكان هذا الشابّ يتظاهر

بأنّ وجوده في المكان مجرّد مصادفة... لم يقترب منّي، ولم يلفت نظري إليه، إنّما وجوده المغروس في المكان ظلّ يتكرّر... وكلّما راودتني الشكوك كنت أطردها، إذ لم يكن لديَّ الوقت لأتلهّى بالصيَغ الخيالية. وليلة أمس، ومع أنّي لم أُبصر وجه السائق، كنت أشعر بأنّه هو نفسه... ومـمَّا زاد في تأكيدي، القبّعة الافرنجية، فوق رأسه! لكنّي، طبعًا، لم أفهم قصده من مطاردتي...

***

وكان مروان، يتوجَّه بحديثه إلى «المجهول»، أكثر ممّا يتوجَّه به إليّ، ويتابع ذرعه أرض الغرفة، ثمّ توقّف فجأة، ونظراته تخترق الستارة الشفَّافة المُسدَلة فوق النافذة، وصرخ بي:

- اقتربي وانظري، هل ترينه؟

نهضتُ بسرعة، وسرتُ إلى حيث يقف. فهمس من دون أن يشير بيده:

- إنّه هو بنفسه. الشاب ذو القبّعة الغريبة.

شعرت بأنّ قلبي يكاد يقفز من بين أضلعي! فمنذ مدَّة، وأنا أُلاحظ ظهور هذا الشاب في محيط المصرف. أحيانًا في الصباح، وأحيانًا عند انصرافي من العمل.

وبالطبع، لم أُعِر الأمر أيّ اهتمام، إذ ليس من الطبيعيّ أن يتوقّف المرء عند كلّ عابر سبيل، ويتساءل: «لماذا هو هنا؟»...

خصوصًا حين لا يكون هناك أيّ سبب للتساؤل. لذا كنت أتجاوزه، وأُتابع سيري، ولا أبالي. ولا أعود أتذكّر من المصادفة شيئًا...

والآن، ها مروان يفتح أقنية الوعي ويهزّ أعماقي، فيقفز السؤال إلى عينيّ:

- من يكون هذا الشاب؟!

***

في الواقع، إنّه لم يكن سؤالًا، بقدر ما كان إشراق حقيقة غير متوقَّعة، فالشابّ ليس هنا بالمصادفة. وإذا كان مروان هو المقصود بالمطاردة، فلماذا؟

إنّه رجل إدارة وإعمال. نجح بسرعة، وارتقى إلى وظيفته الحاليّة مديرًا للمصرف، وبدأ مؤخَّرًا يعمل، وبكثير من الجدّية والإخلاص، لقضيّة سياسيّة يؤمن بها ويعتبرها الطريق الأفضل للنهوض بالبلاد نحو أسمى مرتبات التقدّم.

تلك هي خطيئة مروان، إذا كانت له خطيئة تُذكر. أمّا منافسوه في العمل، فلا أظنُّهم يبلغون حدَّ التصفية، إذ لم يكن مروان من النوع الذي يتحدَّى، ويُثير العواصف. كان سلس الحديث، لطيف المعاملة، منفتحًا على الحوار والى أقصى الحدود...

ولكن من يستطيع أن يرصد مسار السلوك البشريّ؟

من يقوى على رسم الحدود، لتصرّف الآخرين؟ من يعرف كيف ومتى ينقلب الإنسان المسالم، الطيّب، الوديع، إلى قاتل شرس يفتك بالآخرين؟ من... ومن؟...

***

خرجت من دائرة التساؤلات، وجاهرتُ مروان بحقيقة ما يخطر ببالي، ورجوتُ منه أن يعيِّن حارسًا له أو مرافقًا... فلم يُعر رجائي أيَّ اهتمام. بل على العكس، انبرى يُدافع ضدَّ هذا الرأي، معتبرًا أنّ المرافق يلفت النظر. وهذا من شأنه أن يُعطي الموضوع أهميَّة قد لا يستحقّها، في حين أنّ التجاهل هو أفضل الأساليب.

وترسَّخَتْ قناعتهُ بفكرته، حين اختفى الشاب من الشارع، بل من الوجود...

وانقضت الأيّام وأنا لا أبصر له أثرًا.

كذلك أكَّد لي مروان أنّه ما عاد يلحظه في الأماكن التي تعوّد الظهور فيها.

وصرف الموضوع من ذهنه، فلم يعد يذكره على مسمعي. ثمّ تكفَّلتِ المشاغل اليومية بِمَحو ما بقي عالقًا بالذاكرة، إلى أن كان ذلك اليوم المشؤوم، حين استيقظتُ باكرًا، كعادتي، وتناولتُ الصحيفة عند مدخل الشقَّة التي أسكنها، كي أرشف عناوينها بسرعة مع قهوة الصباح، وفوجئتُ، بل فجعتُ، بالنبأ:

«اغتيال مروان النمر فجر اليوم على يد مجهول».

***

أوّل مـا خطر في بالـي، كان أن أهرع إلـى المحقّق في القضيّة، وأروي مـا أعرفه عن الموضوع، من الأحداث اليوميّة التافهة إلى تلك الجلسـة، وحواري مـع مروان، ومطاردة الشـاب الغامض «المجهـول»، والذي لم يعد مجهولًا منّي أنـا على الأقلّ، إذ أنّ وجهه مطبـوع في الذاكرة، بل محفور فيها حفـرًا... وهو يتألّق، وكأنّما الجريمة سلّطت عليه نورًا كاشفًا.

وبالفعل، ارتديت ثيابي وخرجـت. وبدلًا من أن أذهب إلى دائرة التحقيق، توجّهت كعادتي إلى المصرف.

وكان المحقّق في انتظاري، فأُخضِعتُ لسلسـلة من الأسئلة، حاولت أن أجيب عنها وأنا أُخفي انفعالي الشديد.

وكانت أسـئلة رتيبة تتعلّق بالعمل، وأوقات حضور مروان إلى المكتـب وخروجه منه، والأشـخاص الذيـن زاروه في الآونة الأخيرة... وكنتُ أردّ بصدق وبساطة، متجاهلة السؤَال الأهـمّ، والذي لم يخطر لأحدهم أن يطرحـه عليّ. فقد كان الجميع مهتمّين بالزوّار، بالذين يتعاطون مباشرة مع المصرف أو مديره: القروض، والديون، والأعمال والمشـاريع الكبرى والصغرى...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمّ فتح المحقق ملفًّا، وراح يخرج منه صورًا، ويعرضها عليّ، ويسألني عمَّا إذا كنت أعرف وجهًا من تلك الوجوه. أو إذا قام أحدهم بزيارة مروان في مكتبه، قبيل وقوع الجريمة...

وكنت أهزّ برأسي نافية، إذ بدت لي وجوهًا غريبة، ومجهولة.

ثمّ أخذ المحقّق صورة أكبر حجمًا من الصور السابقة وسأل:

- وهذا، هل زار مروان في مكتبه؟

شعرت بأنّ الدم يغور في عروقي.

كانت تلك صورة الشاب الذي دلّني عليه مروان من نافذة المكتب. وكان عليَّ أن أختار بسرعة، بين الإجابة عن السؤال مباشرة، أو تجاوزه، لأروي معلومات شخصيَّة. واخترت الجواب المباشر والمختصر، فقلت:

- لا... لم يسبق لهذا الشاب أن زار مروان في مكتبه.

كان جوابي صادقًا.

وكنتُ أنا جبانة...

وقبل أن يصرفني المحقِّق، أخرج الصورة الأخيرة وسألني:

- وهذا؟ هل تعرفينه؟

وفوجئت:

- طبعًا أعرفه. إنّه وهيب، الحارس سابقًا في المصرف.

قال المحقّق:

- لكنّه لم يعد حارسًا.

أجبت:

- أجل، منذ سنة تقريبًا.

فقاطعني:

- لا نريد رأيك الشخصيّ فيه، إنّما نودّ أن نعرف: كيف كانت علاقته بالمدير؟ أعني المغدور...

وقفز الجواب دفاعًا:

- مروان كان مديرًا عادلًا. لم يظلم أحدًا من الموظّفين. كان إنسانًا في غاية الطيبة، مخلصًا لعمله، ولإدارة المصرف.

- ألم يتلقَّ رسائل تهديد، أو مخابرات إنذار بواسطة التلفون؟

- لا.. لم يحدث شيء من ذلك.

- ووهيب، هل قام بزيارته، بعد طرده من المصرف.

- كلّا. إنّما علمت بأنّه عثر على وظيفة في إحدى الشركات.

- لكنّ مروان رفض أن يُـزَوِّده بشهادة حسن سلوك.

- كان صعبًا على مروان أن يُدلي بشـــهادة زور. زوَّده برسالة قال فيها إنّ وهيب كان موظَّفًا نشـــيطًا. ولم يُضف كلمة «مستقيم» نظرًا لظروف صرفه.

- تقصدين ضلوعه بعمليّة اختلاس.

- هو، وآخـــرون... ولكن ما علاقة ذلـــك بالجريمة؟ القصَّة حدثت قبل سنة. ووهيب مستقرّ ومسرور في عمله.

وردَّ عليّ المحقّق بحياديّة جافّة:

- مجرّد أسئلة تقليديّة، استكمالًا للتحقيق.

***

وفي اليوم التالي، فوجئت بعنوان يحتلّ واجهات الصحف:

«القبض على قاتل مروان النمر».

وأبصرتُ صورة وهيب، مغلول اليدين، يسوقه شرطيَّان إلى باب السجن. وحين بحثتُ في المقال المنشور، تحت ذلك العنوان، عن الأسباب الدافعة لإلصاق التهمة بالحارس المسكين، لم أجد أيّ جديد أُضيفه إلى معلوماتي السابقة.

فَوَجْهُ وهيب هو أبرز الوجوه. وقصّته أبسط القصص. وباتّهامه، كان التحقيق يقوم بمعادلة سهلة جدًّا: «واحد زائد واحد يُساوي اثنين».

موظّف مطرود زائد جريمة قتل للمسؤول الأوّل عن طرده، يساوي اتّهامًا مباشرًا لا يحتمل التردُّد أو الشكّ.

***

وهكذا أُوقِف وهيب بتهمة القتل. وبدأتْ محاكمته، وانتهت بسرعة. وثبتتْ عليه الجريمة، إذ لم يظهر وجهٌ آخر في الساحة. وصدر حكمٌ يقضي بإعدامه.

كنت أُتابع تفاصيل المحاكمة كالمخدَّرة، وأشعر بالحدس أنّي أحمل تبعة اتّهام وهيب.

هناك خطأ كبير، وفي إمكاني وحدي أن أُصحّح ذلك الخطأ.

ثمّ أتذكّر أنّ الفرصة الوحيدة لإنقاذ وهيب ضاعتْ من يدي، عندما امتنعت عن الإدلاء بمعلوماتي الخاصّة للمحقّق أو لزوجة مروان على الأقلّ.

لماذا خرست؟

كنت، ولا أزال، مُتردِّدة وجبانة. واعترافي لا يخفِّف من حجم الذنب الجاثم بثقله، بين عيني، ولن يُخلِّصني منه سوى التحرُّك السريع وقبل أن يُنفَّذ حكم الإعدام بالحارس المسكين...

لذلك، سأخرج، بعد دقيقة أو دقيقتين، فأقود سيّارتي باتّجاه الحيّ البحريّ من العاصمة. وحين أبلغ دَارها، أطرق الباب مرَّةً، أو مرّتين. وعندما تفتح لي دلال، وتستقبلني ابتسامتها الحزينة ونظرتها الذاهلة، لن أتراجع مثلما كنت أفعل في المرّات السابقة... بل سأُقْدِم، وبشجاعة لم أعهدها في نفسي من قبل، فأُرافقها إلى القاضي المختصّ، كي أُدلي بكلّ ما كتمته عن التحقيق من معلومات. سوف أحكي، ببساطة وأمانة، ومن يدري، فقد تنفع الشهادة.

وربَّما قلبتُ المعادلة الرياضيَّة الساذجة التي اعتمدها التحقيق... فيبدأ، من جديد، البحث عن القاتل الحقيقي لمروان النمر...

البحثُ عن رنده

كان اتّصال سـامي بي، تلك الأمسـية الخريفيّة، غير منتظر، فأنا أعلم أنّه مسـافر منذ سنين، ومقيم في الخارج إقامة دائمة، ومُصِرّ على البقاء حيث هو حتّى نهاية الحرب.

هكذا قالت رنده وهي تشـكو لي مشـكلتها العائلية الكبرى: فقد أرادها سـامي أن ترافقه مع أطفالهما الثلاثة، للإقامة الدائمة أو الوقتية في باريس.

وسـامي رجل حسّـاس جدًّا. وهو يكره الحـروب. ويحبّ عائلته الصغيرة حبًّا يقرب مـن العبادة. ولا يطيق أن يصاب أحد أفراد تلك العائلة بأذى.

والأذى عندنـا متوفِّر في كلّ مكان. وإذا لم تذهب أنت إليه، يجيء هو إليك، ويدخل بيتك مثل أيّ ضيف ثقيل...

هكذا فهمت القصّة من خلاصات الحوار، بل النزاع والعراك الـذي كان ينتهي إلى خصـام، يخرج على أثره الرجل الشـديد

اللطف والإحساس، يخرج من منزله، حازمًا حقائبه، مصمِّمًا على عدم العودة.

ورنده عنيدة.

في الواقع، لم أكن أفهم سببًا لعنادها، فعمل زوجها في باريس والزوجات تبعنَ رجالهنّ إلى باريس، أو لندن، أو أيّة مدينة أُخرى في الشرق أو الغرب، تُؤمِّن مقرًّا لعمل الزوج. ومسكنًا لسائر أفراد العائلة.

ورنده أُمٌّ لثلاثة أطفال. وهي تحبّ أولادها. وتريد لهم السلامة والطمأنينة. وليست مرتبطة بعمل أو بعلاقة أخرى تبرِّر بقاءها في بيروت.

ولكن، هل يحتاج الإنسان إلى مبرِّرات وأسباب، كي يحبّ إنسانًا آخر أو مدينة، أو وطنًا؟

وهل يحتاج إلى البراهين والشواهد الحسّيّة، ليثبت للآخرين أنّ جلده ملتصق بجلد المدينة، وأنّ روحه متعلّقة بروح المكان؟

هذا ما كنت أقوله لنفسي حين صرت عاجزة عن فهم تصرّف صديقتي. إنّما لا أنكر أنّي، في أوقات أخرى، كنت أشكّ في موقفها وأتّهمها بإخفاء الأسباب الحقيقيّة لمسلكها الغريب... أو أبحث لها عن تعليلات نفسيّة وفلسفيّة تبرّر اختيارها البقاء في موقع الخطر، حيث تعيش الحماسة والغليان، ورفضها الارتماء في مستنقع الاغتراب والضجر.

ورنده إنســـانة عاطفية، إنّما متكتّمة على أفكارها ومشاعرها. وقلّما تفتح الباب على الزوايا الحميمة في نفسها.

***

واســـتغربت اتّصال سامي بي بعد صمت طويل. فقد انقضت أربعة أشـــهر علـــى اجتياح القـــوّات الإســـرائيليّة لبنان، وما يقارب الشـــهرين على اجتياح تلك القوّات الجزءَ الغربيَّ من العاصمة.

وكنّا قد عدنا من الشتات.

و«نا» هذه تعني البقيّة الباقية من سكّان المدينة، أي الذين لم يهاجروا برغم كلّ الأســـباب الحقيقية والوهمية... وتعني الناس الذين تهدّمت بيوتهم ومكاتبهم ومتاجرهم، وعادوا يصلحونها، أو يجدّدون البناء.

وكنّا نحسّ، ونحن نطلّ من النوافذ أو الشـــرفات المحطّمة، بأنّنا جماعة وحّدتها البليّة، وباتتْ تشكّل كتلة متراصّة، تشدّ بينها أواصر الألفة.

كانت هناك روح غريبة تجتاح الناس، وترفع نسبة التحدّي في صدورهم، فيُقدِمون على التعمير بتصميم وحماسة، قلّما عرفوهما في الأوقات العادية.

***

وكنت واحدة من أولئك الناس. فمن الطبيعيّ إذًا أن يشغلني بناء البيت عن كلّ ما حولي... وبينما كنت غارقة في العمل، انطلق التليفون يرنّ بإلحاح، وسمعت صوت سامي على الطرف الآخر من الخطّ:

- آلو... منى، كيف الحال؟

- سامي؟.. أين أنتم؟

أطلقت السؤال بلهفة.

وردّ عليّ صوته متجاوزًا لهفتي:

- أنا هنا، ولكن أخبريني، ماذا تعرفين عن رنده؟

- رنده؟!

صرخت ولم أقصد الصراخ.

كنت أظنّها في باريس. هذا ما تمنّيتُه وأنا أفكّر فيها، في أثناء حصار العاصمة، وعندما اشتدت الأزمة وكادت أن تخنق الجميع... وحين كنت أتّصل بها تليفونيًّا، كي أطمئنّ عليها وعلى الأولاد، ولا يردّ التليفون الخبر، وتعود إلى أذني أصداء الرنين. ولم أشكّ مطلقًا في أنّ رنده لم تعد تستطيع احتمال الضغط الذي عاشته بيروت، فحملت أولادها، مثلما فعل ألوف المواطنين ورحلت...

وها زوجها يأتي من حيث لا أدري ويسأل:

- ماذا تعرفين عن رنده؟

قلت له، وأنا أحاول تهدئة أفكاري المضطربة:

- ربّـــما تقيم في دار إحدى الصديقـــات. ترى، الاتّصالات مقطوعة، والدروب غير سالكة بســـبب الجدران الترابيّة-الرمليّة. والناس لا تزال ملتصقة بالســـراديب الآمنة. لا ينشـــغل بالك... أظنّها لجأت مع الأولاد إلى مكان بعيد عن خطوط النار...

***

توخّيـــت أن يكون كلامي مقنعًا. خصوصًا وأنّ دار رنده وســـامي واقعة عند أحد الخطوط الأشـــدّ ســـخونة. وقد تهـــدّم أو احترق معظم البنايات المجاورة. وسلمت شقّتهما وكأنّما بأعجوبة.

هذا ما جال في خاطري لدى قيامي بالجولة الأولى في تلك المنطقة. فقد كنت، أنا أيضًا، أريد الاطمئنان إلى رنده...

أوقفت الســـيّارة أمام البناء الفخم. ورفعت نظري إلى فوق، نحو الطابق الســـابع. وفرحت حين لم أبصر آثارًا لحريق أو خراب، بينما أصيبت شقق تقع في الطوابق السفلى. وتهدّمت أو احترقت أخرى في الطوابق العليا. وكان طابقها سليمًا. ولكن هي. أين يمكن أن تكون؟

***

سامي لا يزال على الطرف الآخر من الخطّ، وصوته يسألني بلهجة يشوبها اليأس:

- متى رأيتها آخر مرّة؟

وكان الجواب، عن سؤال كهذا، في غاية الصعوبة. فأنا لا أريد أن أكذب على زوج صديقتي، وأودّ في الوقت نفسه أن أساعده ولا أدفعه إلى اليأس، لذا أجبت واضعة اللوم على إهمالي:

- غادرتُ بيروت قبلها، ولم أتمكّن من الاتّصال بها... حين ساء الوضع في الحيّ، اضطررنا إلى أن نصعد إلى الجبل. ولكن قل لي: ألَم تسأل أحد الجيران.

- جيران؟

قالها سامي يائسًا، ثمّ تابع:

- ليس في البناية أحد، حتّى الصراصير رحلت عن هذا المكان...

***

شعرتُ بالحيرة والضيق. ثمّ بدأ الضمير يدقّ بمطرقة التأنيب:

- كان يجب أن تخبريه...

- لكنّي لست واثقة بأنّها لجأت إلى هناك.

- هي أخبرتك... قبل الاجتياح بأيّام قالت لك...

- اجل. اتّصلت بي. جاء صوتها على التليفون، متهدّجًا ومرعوبًا:

- يا منى، لم أعد أعرف ماذا أريد، وكيف أتصرّف. سامي يريدني أن أسافر فورًا، وأنتِ تعرفين موقفي من السفر.

قاطعتها بشراسة:

- هذا ليس وقت تسـجيل مواقف. عليك أن تنقذي أولادك. إنّهم مسؤوليّتك.

- أعرف ذلك تمامًـا. وهذا مصدر رعبي. فإلى أين تريدينني أن أحملهـم؟.. لن أسـافر إلى باريس. ولم تبـقَ بقعة لا يطالها القصف. ومن كلّ الجبهات. برًّا وبحرًا وجوًّا.

حاولتُ أن أساعدها على اتّخاذ قرار فقلت:

- في استطاعتك أن تصعدي إلى داركم في الجبل.

فصرختْ:

- لا. لا... فالجبل أيضًا مهدّد. ولم يَبْـقَ لي، سوى القصر البحريّ.

قهقهتُ، بالرغم منّي. وعاد إليّ صدى الضحكات...

لم أكن أشـكّ في أنّ رنده تمزح، وتحوّل الحديث بعيدًا عن مناخ الجدّية المتأزّمة. لكنّ صوتها أعادني إلى خطّ القلق:

- لا. أنا لا أمزح. سوف ألجأ بهم إلى القصر البحري، ونبقى هناك حتّى نهاية الحرب.

وهنا صرختُ بحدّة:

- أنـتِ مجنونة، قصف البـوارج يُركّز أكثر مـا يُركّز، على الشاطئ... ماذا دهاك؟..

قالت:

- كلامك صحيح. لكنّ القصف لن يبلغ القصر البحري.

- والسبب؟

سألتها بسخرية؟ فردَّتْ بكثير من الجدّية والثقة:

- لأنه أبعد من الظنون.

لم أعد أناقشها، أو أبدي رأيًا معاكسًا لرأيها. فقد تعلّمت، من عشوائيّة القصف، و«من تُصِب تُمِتْهُ، ومن تخطئ يُعمّر فيهرم»...

تعلّمت درسًا واحدًا: أن لا أكون سخيّة بإعطاء النصح والإرشاد، ولا واثقة بموقفي أو اعتقادي، فالحرب اقتلعت ثقة من نفوسنا، أنفقنا في بنائها العمر كلّه... خَلَعْتها من كياننا، مثلما تخلع الرياح الهوجاءُ جذورَ النبتات الطريّة، وتذريها في كلّ اتّجاه.

ثمّ، ماذا كنت أعرف عن «القصر البحري» سوى اسمه؟.. والاسم من ابتكار رنده. وحتّى تلك اللحظة، كنت أعتقد أنّ القصر أيضًا من بدع خيالها. فصديقتي تملك خيالًا خصبًا، تغرف منه حكايات أسطورية. وقد فاجأتني ذات يوم بحديثها عن القصر البحري.

فقلت لها:

- منذ عشرين سنة وأنا مقيمة في جوار الشاطئ، ولم أسمع أحدًا يتحدّث عن هذا القصر.

قالت:

- بالطبع لم تسمعي. فهو مكان مجهول تمامًا. ولا يعرفه سوى نفر قليل من قدامى الصيّادين.

- وهل يقع في عرض البحر؟ فوق إحدى الجزر مثلًا؟...

ضحكتْ من سذاجتي:

- بالطبع لا... إنّه هناك، تحت تلك الصخور الدهريّة.

قالت ذلك وهي تشير إلى صخرة عملاقة من صخور الشاطئ.

وصرختُ أنا بدوري:

- قصـــر؟.. وتحت الصخور؟.. إنـــك تذكّرينني بقصّة «علاء الدين والفانوس السحري».

- بل أعرّفك إلى محيطك. هلمّي نذهب معًا، كي أريك القصر.

وبالطبع لم أذهب. وأرجأنا الزيارة حتّى موعد آخر لم يتحقّق.

ومع أنّي لم أكن شديدة الحماســة للتعرّف إلى القصر العجيب. فإنّ رنده لم تترك مناسبة تمرّ ولا تحدّثني عنه:

- لا... ليس كوخًا كما تتصوّرين. ولا مغارة حفرتها الأمواج في عمق الصخور. إنّه قصر حقيقيّ، ربّـــما كان لملك من ملوك الأزمنـــة الغابـــرة. يوصلك إليـــه رواق طويل. ثـــمّ تهبطين بضع درجات، قبل أن تبلغي الباب الأمامـــي، والذي يبقى مفتوحًا في كلّ الفصـــول، إذ أنّ التيـــارات العنيفة، من عواصـــف البحر، لا تتسرّب إليه. وتدخله النســـائم الناعمة، وهمس الأمواج. وحالما تلجين الباب، تجدين نفســـك وسط قاعة فسيحة، محاطة بجدران

صخريــة، حفرتها يد فنّانــة، وحوّلتها إلى معــرض دائم للجمال الطبيعيّ. وحول تلك القاعة غرف صغيرة، مغروســة في الصخر، وفي استطاعة المرء أن ينام ويقوم في إحدى تلك الغرف، أشهرًا، لا بل سنوات ولا يدري به أحد.

كنت أصغي إلى رنده، وفكري يقاوم ويعترض:

- إنّــه حلم جميــل جدًّا، لكنّــه ليس بالمــكان الآمن كما تظنّين...

وانتفضت رنده:

- إنّه آمنٌ بوجوده وتكوينه وسرّيّته...

- وماذا عن اللصوص؟ ألم يهتدوا إليه؟

وردّت مدافعة:

- إنّه ملجأ الصيّادين. عرّفوني إليه قبل عشــر سنوات، ومنذ ذلك الحين، نشــأت بيننا صداقة بحريّة. إنّهم يؤلّفون عصبة، ولا يقبلون فيها عضوًا واحدًا من خارج المحيط البحري.

- وقبلوك، طبعًا!

قلتها بسخرية، وغيظ. فابتسمتْ صديقتي وقالت:

- طبعا... فأنــا من روّاد البحر، وفــي كلّ الفصول... آه، يا ليتك ترافقينني لتصدّقي ما أقول!

لم يُثرني تشويقها، ولم يُحرّك في صدري أيّة حماسة. واعتبرتُ ما جرى بيننا كلامًا مرشّحًا للنسيان.

ولم يعد القصر البحـريّ يعبر الذاكرة فـي الأيّام التالية، وكانـت مشـحونة بالخـوف والقلق، وبسَـيل مـن القذائف والصواريخ.

***

وتحت وابل القصف العنيف خرجنا من البيت، بعدما صار هدفًا، وأصابته القذائف من عدّة جهات. وقدنا السيّارة من دون أن يكون لنا اتّجاه معيّن. كنّا ندخل من شـارع إلى زقاق، وأحيانًا نعود إلى نقطة البداية، بفضل المسـالك اللولبية، ومـا ارتفع بين المداخل والمخارج من تلال الرمل والتراب.

ولن أسرد بالتفصيل ما جرى بعد ذلك، إنّما لا يسعني إلّا أن أسجّل حقيقة عاشـها كلّ من اكتوى بنيران حربنا الشرسة، وهي تقليص الكيان البشـريّ ليصبح بحجم البيضة، أو بحجم أيّ كيان صغير يمكن أن تحويه راحة اليد.

لذا، انقطعت عنّا أخبار رنده، ولـم يعد يمكننا الاتّصال بها، ومرّت أيّام النار والدمار، لتزيد الشـقّ اتّساعًا، وتغرس بين الناس الفرقة والضياع. ولمّا هدأت المدافع، وبات في الإمكان الرجوع إلى الحيّ، ولملمة الأشلاء النازفة، كان أوّل ما فعلته، تفقّد أحوال الجيران والأصدقاء. ورنده واحدة منهم...

ورنده لم تكن في البيت.

كذلك لم أصادف، في الحيّ، من يخبر عنها. وظننتها خرجت مع القوافل الحزينة التي اضطرّت إلى الرحيل هربًا من الموت عند أعتاب البيوت المنهارة.

وظللت أنتظر خبرًا منها أو عنها، إذ لم يخامرني أيّ شكّ، في أنّها حملت الأولاد، ومضت إلى حيث يقيم زوجها، وحيث يكون وجودها في مأمن من خطر الموت.

هذا ما رسخ في بالي، وجعلني أطمأنّ إليها، حتّى جاءت مكالمة سامي، في تلك الأمسية الخريفيّة، وكانت قد انقضت أربعة أشهر على اجتياح القوّات الإسرائيلية لبنان، وما يقارب الشهرين على اجتياح تلك القوّات الجناح الغربي من بيروت...

وزوجها يسألني بلهفة:

- ماذا تعرفين عن رنده؟

ويتلعثم لساني، وتفرّ منّي الكلمات، وتهبط فوق رأسي غيلان الشكّ والرعب، وتأخذني الأفكار، ثمّ تردّني، وعلى تموّجاتها، ألمح وجه صديقتي وأولادها الثلاثة، محشورين في ثقب تحت الأرض، تُسمّيه هي «قصرًا».

والقصف متوقّف منذ شهر. ولو كانت حقًّا لجأت إلى ذلك «القصر» لخرجت منه، بعدما ساد الهدوء.

ثمّ تقفز خفافيش الشكّ الأسود وتغرز أظافرها في عيني، ويهدر صوت من المجهول:

- لو كانت رنده على قيد الحياة، لاتّصلتْ بكِ... لو كانت... كانت... كانوا...

وأرفع يديّ الاثنتَين، أُغمض بهما عينيّ ويظلّ المشهد يترجَّح أمامي. وأراها تجرّ أطفالها الثلاثة، وكلّ واحد منهم يشبه ملاكًا من ملائكة «الشروبيم». تجرّهم خلفها، وهي تروي لهم الحكاية، وتخبرهم عمَّا ينتظرهم في القصر من مفاجآت، وهم يتبعونها مأخوذين بسحر ما يسمعون، ويسيرون إلى أغرب مغامرة في حياتهم، ويُصدّقون كلّ حرف تفوه به، ولا يرتابون بكلامها.

هي أمّهم، وتريد لهم الخير والسلامة.

تقول لهم: «القصر يحمينا، ولا يعود القصف يهدّدنا، هنا نحن في ملجأ أمين، أعدّته لنا الطبيعة الأمّ، وأعدّه لنا صديقنا البحر.»

ويرافقونها إلى الداخل، زاحفين على بطونهم، إذ أنّ الفتحة لا تتّسع لقاماتهم الصغيرة. ويتبعونها زحفًا مأخوذين. فهذه أوّل مرّة يمارسون فيها الرياضة بهذا الأسلوب. وعندما يصبحون في الداخل، تنير لهم شمعة، ويجلسون في زاوية بعيدة في عمق المكان، على نور ضئيل ترسله الشمعة، أو في الظلام، ويُصغون... والدنيا تزلزل فوق رؤوسهم وهم منها في أمان.

ثمّ أراها في مشهد آخر، وحين يتسرّب النعاس إلى أجفان صغارها، تفرش لهم حضنها، كي يناموا فوقه، ثمّ تنحني، جاعلةً الجزء الأعلى من جسمها غطاء لهم.

وهـــا هي تنهض في الصبـــاح، كي تطعمهـــم. تزقّهم القوت مثلما تفعل أنثى الطير. ربَّـــما حملت لهم بعض الخبز أو الكعك والمعلّبات.

ربّما وجدت، في زوايا المكان، بقايا مؤونة يخزّنها الصيّادون للأوقات العصيبة.

أقول «ربّما»، لأنّ هذا حدّ علمي ومدى إدراكي. ولأنّ هذا هو الجدار الذي تتوقّف عنده الظنون.

***

وسامي؟..

مسكين سامي!..

لا يزال ينتظر، علـــى الطرف الآخر من الخطّ... ويتوقّع مني جوابًا يغرس في نفسه الطمأنينة وهدوء البال.

وأنا ماذا في وسعي أن أقول؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

جَبـل السندرُوس 5
الحِصَـار 15
مِـن أعماقِ اللُّـجَـة 27
لِقَـاء حُـلُـمَـيْن 41
إنّهم يخدَعونَ العَـصـافير 49
الطَّاحونة الضَائعة 61
نحنُ بـخَير 73
الحيَـاة مَـرَّتين 83
العـمَّـةُ لطيفة 93
الرِّهَـان 103
الفجـر 117
حُـلْـقوم الذِّئب 127
بَـقـيَّـةُ الكلام 141
كنزُها الصَّـغير 153
الفصل الأخير 167
قِصَّة حقيقـيَّـة 179
رسَالة إلى آن جاكسون 189
كلُّهنَّ أمُّـه 201
الطَـائرُ الأخضَر 215
بيتٌ ليسَ لَها 227
النَّـافذة 239
معَادلة رياضيَّـة سَاذَجَـة 253
البحثُ عن رنده 269

مطأطأةَ الرأس، سارتْ إلى جانب الصبيّة، في طريق العودة، تُجرِّرُ قدمَيها، وتتعثّر بخيبتها... ولذلك لم تنتبه إلى حجرٍ نفرتْ حروفُه، من تحت الردم، واعترضت خطواتها.

نَدتْ عنها صرخة مخنوقة، وكادت تهوي لو لم تسندها ذراع الصبيّة...

وفي تلك اللحظة، لمعت الحقيقة في عينَيها مثل تشظّي البرق.

تعثّرت بحجر الرحى.

إنّها تقف فوق أطلال المطحنة.

مطحنتها القديمة الغالية، مدفونة هنا، تحت طبقات كثيفة من ردم النهر، وجرف السنين....

من «الطاحونة الضائعة»

إملي نصرالله (**أبي راشد**) من الروائيّات الرائدات. عملت في الصحافة، ثمّ غلب عليها الأدب فانصرفت إلى كتابة الرواية والقصّة وروايـة الفتيان والأطفال والسيرة. أكثر ما شغلها هو موضوع الهجرة فكانت فيه رائدة. تُرجم الكثير من كتبها إلى الإنكليزية والألمانية والدانمركية والفنلندية والتايلندية. لا تزال الصحافة جزءًا من مشاغلها، إضافة إلى الأدب.

telegram @soramnqraa